

ليالي عاشوراء

السنة العاشرة



الشيخ علي حسن غلوم



ليالي عاشوراء

بقلم الشيخ
علي حسن غلوم علي

محرم ١٤٤٢ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

alwalaa.com

Email: alwalaa66@yahoo.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات الكتاب

- المقدمة. بقلم الأستاذ علي حسن محمد ٧
- ١. قوة الجذب الحسينية ٢٥
- ٢. التفرعن والتتّم ٤٩
- ٣. الشريعة والإنسان ٧١
- ٤. المنهج العقلاّني الوسطي ٩٥
- ٥. كورونا والأخلاق ١٢١
- ٦. الحسن والقُبْح ١٤٧
- ٧. فقه الأولويات ١٦٩
- ٨. ترجيح القيمة الأخلاقية ١٩٣
- ٩. العزة ٢١١
- ١٠. الحسين وفتية عاشوراء ٢٣٣
- ١١. وصايا - القسم الأول ٢٥١
- ١٢. وصايا - القسم الثاني ٢٦٧
- ١٣. الصدقة الجارية ٢٨١
- ١٤. العلوف في الأرض ٢٩٥
- ١٥. التآلي ٣٠٧
- ١٦. ثبات الأخلاق ونسبيتها ٣٢٣
- ١٧. مراتب الأخلاق ٣٣٧



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين،
والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين
المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين
الطاهرين.

من خلال استماعي لمحاضرات إمام الجمعة والجماعة
في مسجد سيد هاشم بهبهاني سماحة الشيخ الجليل علي
حسن غلوم في ليالي عاشوراء لعام ١٤٤٢هـ وبعد اطلاعي
وقراءتي لمحتويات هذا الإصدار المتميز (ليالي عاشوراء
١٤٤٢هـ) الذي أبدع سماحته في سرده وربطه بين الأحداث
والمواقف في الحقب والعصور القديمة والمعاصرة والحديث
من مختلف الأنظار، مرتكراً على الأسس والمبادئ التي أكد
عليها الشرع الإسلامي الصحيح.

لقد أخذ سماحة الشيخ الجليل علي حسن غلوم على
عاتقه منذ بداية مسيرته وعمله كإمام الجمعة والجماعة
وكخطيب للمتبر الحسيني أن يكون القرآن الكريم هو

دستوره في أداء مهمته الرسالية، ومدرسة النبي وآله هي التي ترسم له معالم طريقه، وارتباطه بالمرجعية الدينية هو الرافد له علماً وعملاً، ووطنيته هي شعاره وعزّه، للعمل في ساحات ثلاث: في الدائرة الشيعية الخاصة بقضاياها وخصوصياتها، وفي الدائرة الإسلامية العامة دفعاً نحو مشاريع الوحدة والتقارب والتعايش، ومن ثم على مستوى الإنسانية جمعاء، لأن الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق كما قال أمير المؤمنين «عليه السلام».

لذا استطاع سماحة الشيخ وتمكّن من خلال الطرح المتوازن أن يؤكد على أهميّة وشمولية وتاريخ وعمل ودور المنبر في المساجد والحسينيات في دولة الكويت من الناحية النظرية والتطبيقية، مدعمة بالسرد والشرح والدلائل التاريخية في بيان أهداف الثورة الحسينية والقدرة على ربط هذه الأهداف بما يدور في فلك الوقائع الحديثة والحالية، وعلى سبيل المثال أحداث (جائحة كورونا) وتداعياتها على مختلف جوانب الحياة، مما ميز هذا الإصدار وصنّفه ضمن الإصدارات التي ستعمّق المفاهيم الدينية والتربوية

والتاريخية لدى أفراد المجتمع، وتساهم في إثراء المكتبة الدينية والعلمية والأدبية في دولة الكويت.

والمتمأمل والمتممّن في هذه المحاضرات التاريخية المتميّزة، يتّضح له جلياً حجم المجهود الجبار المبذول في إعدادها وإخراجها شكلاً ومضموناً نظراً لما تحتويه من معلومات قيّمة في عنوانها ومعانيها، حيث وثّق سماحته بمهنية خاض من خلالها أعماق التاريخ ورسّخ قواعده في وجدان المجتمع بضميره المتوهّج بمحبّة أهل بيت النبوة الأطهار «عليهم السلام»، مما جذب المتابع والمستمع والقارئ للمنبر الحسيني بدرجة تجعله يشعر ويعيش الأحداث بواقعيّة، بأسلوب سهل ممتنع.

• المنبر صوت ووعاء الحسين:

إن خير ما نستند عليه في هذا التّقديم فيما يتعلّق بالثورة الحسينية، هو ما ورد على لسان عميد المنبر الحسيني الدكتور الشيخ أحمد الوائلي «قدس الله سره» في كتابه (تجاري مع المنبر) والذي بيّن فيه أنّ الحسين بن علي «عليهما السلام» صوت الحق والعدل والحرية، وكلّ صوت



من هذا القبيل يقضّ مضاجع العروش المستبدّة الظالمة، فتقوم بإسكاته بكلّ ما تملك من أسلحة، سواء كانت تلك الأسلحة ماديّة أو معنويّة، وهذا عين ما صنعه الأمويون، فقد جنّدوا كل أدواتهم لإسكات صوت الحسين «عليه السلام»، فبدأوا بالضغط حيث سجنوا الكثير ممن يخشون أنه يساند هذا الصوت، وبالإغراء في جانب آخر، فبدلوا الأموال الطائلة وفتحوا الخزائن على مصراعيها لشراء الذّمم، فقد جاء في حديث الحسين «عليه السلام» مع نفر الأربعة الذين التحقوا به في عذيب الهجانات مزيد من التأكيد على ذلك، وذلك حينما سألهم الحسين «عليه السلام» عن خبر الناس من ورائهم فقال له مجمع بن عبد الله العائدي: (أما أشرف الناس فقد أعظمت رشوتهم ومُلئت غرائرهم، يُستمال ودُّهم، فهم ألبّ واحد عليك، وأما سائر الناس فإنّ أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم مشهورةٌ عليك)، وبالأفواه والأقلام المأجورة التي راحت تصف الحسين «عليه السلام» بأنه خارجي شقّ عصا الطاعة وقتل بسيف جده، إلى وسائل أخرى حُشدت في الميدان، وقد كان من البله تصوّرهم أنهم



أسكتوا هذا الصوت، فمثل هذا الصوت لا يمكن إسكاته، لأنه يحمل هموم الإنسانية وتطلعاتها، فإذا مرّ عليه دور يكون فيه هامساً فليس معنى ذلك أنه مات، لأنه سيرتفع ثانية على تفاوت في مدى هذا الارتفاع، وقد تجسد صوت الحسين «عليه السلام» في جملة من الوسائل المعبرة، ومنها المنبر الحسيني، ومنها الكتاب، ومنها الشعر، وغير ذلك، ولعلّ المنبر هو الأداة الأولى من حيث الأهمية والتأثير.

ولذلك رأيناه يُكافَح ويُكَبِّت بوسائل عنيفة عبر العصور التي مرت وحتى اليوم، ولمّا كان المنبر صوتاً للحسين «عليه السلام» فقد حظي باهتمام كبير وتناولته معالجات مختلفة تحاول إشباع الجوانب المتعلقة به، وأهم ما ينبغي أن ينصبّ عليه الاهتمام هو أن يكون المنبر تعبيراً صادقاً عن مزاج صاحب هذا الصوت، المزاج الذي سكه الحسين «عليه السلام» في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية (أما بعد فإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي

(علي). إن هذا التوجه عند أبي الشهداء ما كان مجرد نوازع تعيش داخل الحسين، وكمجرد فكرة، وإنما هو تحديد لأمر موضوعية يريد لها الحسين «عليه السلام» أن تتجسد، يريد لها أن تكون من هواجسنا كمسلمين أولاً، وأن يجسدها المسلمون بالوسائل التي رسمها الشرع الشريف.

إن ذلك يُفهم بديهياً من كون النبي «صلى الله عليه وآله» ترك ثقلين، كتاباً وعترة، ولو أراد النبي مجرد وجود هذه المفاهيم نظرياً لاكتفى بالقرآن الكريم، ولكن الجانب النظري لوحده يبقى مجرد كتاب موضوع على الرف.

تتضح مما ذكرناه أهمية هذه الأداة المعبرة عن أهداف الطف وضرورة الخروج بها إلى مستوى أوسع من المناسبة المحدوة، حيث تنبسط عن سائر أيام السنة لتشيع الحاجات المعرفية المتجددة دائماً، خصوصاً وأنه من حيث ظرف المناسبة امتد طوال السنة، ولكنه من حيث الظروف يحتاج إلى التنوع، ضرورة تعدد الحاجات الفكرية للمستمع، وامتداده على أيام السنة يعني أنه صار زاداً ينبغي الحرص على كونه زاداً نظيفاً لا يفقد معنى

التغذية، ولا ننسى أن المنبر وعاء الحسين «عليه السلام»،
 فينبغي أن نعرف كيف وأي وعاء نضع الحسين فيه، هناك
 وعاءان لا ثالث لهما يمكن أن نضع الحسين «عليه السلام»
 في أحدهما في حدود اختيارنا: الوعاء الأول وعاء الارتزاق،
 ولهذا الوعاء مواصفات معروفة لا تخرج بواقعة الطف عن
 صورة ذليلة ونساء حاسرة ومواقف لا مكان للرجولة فيها
 ولا ملامح للأهداف، وإنّما كل ما فيها نساء يندبن أجساداً
 ممزّقة ويتامى يستبدّ بهم الرعب، ومجموعة من القتلة تمثّل
 بالأجساد، وتعبير عن ذلك كلّه بألفاظ لا تُناسب مكانة
 الشهادة والشهداء، ولست أريد أن أنفي وقوع هذه الصور
 المأساوية، فقد وقعت بالفعل، ولكنّها وقعت لتُسفر عن نتائج
 معيّنة هي ثمرة التضحية، فهي تمثّل جانباً من الصورة لا
 ينبغي أن يستبدّ بالصورة كلّها، وتحاط بمبالغات تذهب
 بالملامح الصحيحة المعبرة، والتي تُدين الأمويين وتفضح
 نواياهم.

أمّا الوعاء الثاني الذي يُفترض أن يوضع الحسين «عليه
 السلام» فيه، فهو وعاء الرسالة الذي يبتعد عن المزايدات

والمبالغات، ويستشف من وراء كل تحرّك وكل مفردة من مفردات واقعة الطف الهدف الكبير والسرّ الكامن، وفي الوقت ذاته استجلاء محتويات هذه الواقعة وتقديمها دروساً نستلهمها في مسيرة الحياة. إن الحياة الكريمة محتاجة دائماً لأن تُستلهم مواقف رموزها وقادتها، فإن سيرة القادة طعام النفس الجائعة.

وهنا أقول: نحن نتطلّع إلى المبلّغ الواعي الذي يصنع المنبر المتزن فينبغي، أن تتضافر جهود الدعاة والمبلّغين كلّ حسب استطاعته لرسم تصوّره عن أفضل السبل لصنع هذا المنبر المنشود. إن المنبر مثله مثل بعض الأحكام التي تتغير بتغيّر موضوعاتها، فلا تبقى أكثر مكوّناته ثابتة، بل هي من نمط ما يتحرّك دائماً ويحتاج إلى مواكبة وملاحقة وإدارات ومناهج تلائم المستجدّات ما دمنا نفترض أن المنبر من حاجات الناس التي أصبحوا لا يستغنون عنها كما هو الملاحظ، فينبغي اللحاق بها.

إن كل رأي من الآراء يكون أقرب إلى الكمال إذا كان رأياً جماعياً، ومن هنا جاءت أهمية الاستشارة التي قال عنها

أمير المؤمنين «عليه السلام»: (من شاور الرجال شاركها في عقولها) ، إلى غير ذلك من الأسباب التي تدعو إلى تضافر الآراء وتعدد الرؤية فيما ينبغي أن يكون عليه المنبر في كل فترة من الفترات التي تمرّ بها الأجيال، مثله مثل باقي شؤون الحياة المتحرّكة التي تحتاج إلى ملاحقة بالتقويم وتحديد المناهج تبعاً للأزمة، وأنا هنا أعتبر هذه السوانح دعوة إلى إخواني بأن يساهموا بملاحظاتهم حول كل ما له علاقة بالمنبر، لنضع لبنات قابلة للنمو في طريق خدمة المنبر حتى يكون قريباً إلى الكمال المستطاع.

• أخلاقيات المنبر:

كل عمل من الأعمال أو نشاط من الأنشطة إذا لم يتوفر فيه العنصر الأخلاقي فهو مجرد عن الروح وخصوصاً النشاط الديني، فإن من ألزم الأشياء له الأخلاق، ضرورة أن ذلك روح الدين، أليس يقول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)؟ وأهم أخلاقيات المنبر في ما أرى هي التالية:

أولاً: أن يستهدف عمل المنبر وجه الله «تعالى» قبل وبعد

كل شيء، فإنه إن حاد عن هذا الهدف فمال إلى مكانة أو مال أو ما شاكلهما، وكلها أهداف محدودة وزائلة، تحوّل المنبر إلى دكان لعرض بضاعة ولا ترتفع به عن هذا المستوى وتُعجّل بنهايته، فإن ما رُبط بزائل زال، أما إذا استهدف وجه الله «تعالى» في ترسيخ العقائد والأحكام والأخلاق فقد سلك الطريق القويم، وضمن للمنبر أن لا يزول، لأنه ربطه بالدائم... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من مفردات منهج العلوم التقوى ومراعاة وجه الله «تعالى»، فإنها منفذ فاعل في الاستلham وتلقّي العطاء من الفيض، وفي ذلك الحصول على آليّة نافذة إلى النفوس وبنائها، ومن دون ذلك لا يتأتّى الحصول على الأثر المطلوب.

إننا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجه الله «عز وجل» من وراء كل عمل، وأن لا تحوّل بيننا الرغائب المؤقتة، وإن كان انتظار الرزق من وراء أي عمل مشروع ليس منافياً للشرع، ولكن لا ينبغي أن يُجعل الهدف الأساس بحيث يحجبنا عن الوجه الكريم الذي لا يخفى في حين من الأحيان، ولكننا نحن الذين نُحرم من رؤياه بفعالنا.

ثانياً: الثانية من أهم أخلاقيات المنبر وهي من متطلبات الأولى، الارتباط بالصالح العام والارتقاء إلى هذا المستوى بعيداً عن التحول إلى مدية بيد فئة أو فرد ضد فئة أو فرد آخر بدوافع شخصية فلا يرتفع لما أريد له. وهو في وعاء الاعتبار إنما يُنظر إليه على أنه منارة هدى ما دام يحمل للناس مشعلاً يُضيء لهم الطريق، وكتاباً يحفظ التراث، ووسيلة تشترك مع الوسائل الأخرى في التقويم والتسديد، وهنا أرجو أن لا يلتبس الأمر على القارئ فيحسب أنني أريد أن أجرد المنبر من وضع الإصبع على بعض الدمامل أو معالجة مواطن الخلل في جسم الأمة كلاً، بل أريد أن يكون التقويم مرتفعاً عن الهدف الشخصي ويصب في الصالح العام. إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وضعا الإصبع على الدمامل فيما لهما من منهج في المعالجة، فقال «عز وجل» عن بعضهم: ﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾^(١)، وقال النبي «صلى الله عليه وآله» فيما روي عنه: (رأيت قوماً ينزون على منبري نزو القردة)، وقال لبعض: (فو الذي نفسي بيده



لما يدحرج الجُعل برجله خيرٌ من آبائكم الذين ماتوا في (الجاهلية)، ومن الواضح أنهما في مقام التقويم والوصف.

وكذلك تلميذ القرآن، الإمام أمير المؤمنين «عليه السلام» قيّم جماعة رجعوا لتوهم بعد أن بايعوا ضباً وقالوا: (يا ضب أنت والله أحب إلينا من علي بن أبي طالب!)، فقال: (إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليأتي كل قوم بمن يأتّمون به في الحياة الدنيا، وذلك قول الله «عز وجل»: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾^(١) وكأني انظر يوم القيامة إلى قوم يحشرون وإمامهم الضب يسوقهم إلى النار).

إن كل هذا من الشواهد على معالجة الخلل، ولكني أريد أن لا تكون المعالجة بهدف شخصي وإنما يراد بها وجه الله «عز وجل» حتى لا تعود سبباً من شخص لآخر تفرزها الذات لا الموضوعية.

ثالثاً: ارتفاع ممارسة العمل المنبري عن ارضاء القاعدة الهابطة على حساب الحقائق والقيم وعلى أشلاء العقل والذوق، وكل ذلك لتحصيل مكانة أو سمعة أو استقطاب

(١) سورة الإسراء: ٧١.

جمهور أو من أجل سحب البساط من تحت خطيب آخر، فالطعام الجيد لا يضره أن لا يتذوقه الآخرون، كما أن الطعام الرديء لا يصعد به أن يأكله عدد أكبر، فإن جمهور الأعمال التي فيها أصالة ومعاناة دائماً ما يكون أقل من جمهور الأعمال السطحية، فإن الذين يُلاعِبون قِرداً قد يجمعون من الجمهور أكبر بكثير مما يجمعه آينشتاين إذا أراد شرح نظريته النسبية.

وتحضرني هنا قصة بشار بن بُرد وهو شاعر فحل، فقد كان يقارع خصومه بشعره، فكان لا يحصل إلا على قليل ممن يردّد شعره، ولكن خصومه انبروا له بشعر هابط يستسيغه العامة فتلقّفه الجمهور وراح ينطق به، ولكن شعر بشار يبقى موضع جدارة وتقدير، بينما انحسر الهراء واللغو. فلا ينبغي أن ينصبّ همّ المنبر على اجتماع غنيّ بالعدد، وإن كان بفكر فقير في النوعية.

• ملامح الخطيب والخطابة:

الخطيب انطلاقاً من تعريفه بأنه - حسن الخطبة -
يستبطن هذا التعريف الأمور التالية :



أولاً : أسلوب الطرح، وهو أمر مهم يكون له أبلغ الأثر على السامع، كما يُحدّد مكانة الخطيب ومنزلته في نفوس السامعين، ومن سكب المضمون الذي يريد إيصاله إلى الآخرين في عبارات مناسبة ومهذّبة تخلو من التبجّح والادّعاء وتستعمل المفردة التي لها وقع في نفوس الجمهور، فإن المفردة الكلامية كما يكون لها في الشعر دور كبير، كذلك هي في النثر . ومما له صلة بأسلوب الطرح هو تفصيل الثوب من الألفاظ بقدر المعنى، من دون أن يكون فضفاضاً أكبر من المطلوب، أو ضيقاً أصغر من حجم المضمون.

إنّ لهذا المعنى دوراً مهماً في مقبولية الخطبة والخطيب، وهو أهم ما يتصل بأسلوب الطرح لارتباطه بظروف الأداء من مختلف الجهات، فبعض ما يطرح في زمان قد لا يصلح للطرح في زمان آخر، وكذلك بعض ما يطرح في بعض الأمكنة قد لا يطرح في مكان آخر، فليس من الذوق في شيء أن تطرح في مجلس كله من الناس غير الاختصاصيين الأدلة الأصولية أو الفقهية على أن الغسل أو المسح على الرأس في الوضوء هل يجب أن يستوعب الرأس كله أم يكفي بعضه، بل

يذكر لهم مجمل نتيجة الأدلة في كفاية مسح بعض الرأس،
وأما مقارعة الدليل بالدليل والحجة بالحجة فهذا من شأن
ذوي الفضل والمكانة العلمية. وبالجمله إن أسلوب الطرح
مهارة يجب أن يتقنها الخطيب ويتصيدها من مصادرها
وخصوصاً من أساتذة الفن .

ثانياً: انطلاقاً من التعريف السابق، يتعين تتبع العلامات
البارزة والأحجام المرموقة التي لها إسهام في المشاركة
بالطفّ، فإن ذلك بالاضافة إلى كونها مادة دسمة في
مضمون المنبر، فإنه يثبت معنى القدوة في نفوس قد تكون
ضعيفة تشعر بالتذمّر من ممارسة أمثال هذا اللون من
الشعائر.

فعلى سبيل المثال، إذا عرف السامع أن شرائح متنوعة
ولامعة في تاريخنا كانت تُقيم مجالس العزاء للحسين
كالفاطميين، وتفاصيل ما كانوا يقومون به، وكالبويهيين
والحمدانيين وبعض حكام الهند من غير المسلمين ومثل ما
روي عن رأس الجالوت - كبير الجالية اليهودية - كما نصّ
عليه ابن سعد في الطبقات حيث ذكر أنه قال للأمويين:



(والله، إِنَّ بيني وبين داود لسبعين أباً، وإن اليهود لتلقاني فتعظمني، وأنتم ليس بينكم وبين ابن نبيكم إلا أب واحد قتلتموه)، ومثل إسهامات الكتاب الغربيين في تأيين الحسين «عليه السلام» ممن تعرّضت لهم كتب الطف. إن كل ذلك ينبغي أن تُشرّح تفاصيله تحقيقاً للهدف المطلوب من أهمية الواقعة وتأصيلها في النفوس بما لها من زخم يلتقي وتلك الأهداف.

ثالثاً: العمل بمهارة على وضع المستمع المسلم أمام مسؤوليته في عدم التحرّج من عملٍ يُحبّذه الإسلام بتشريعه وأشخاصه، نظريةً وممارسةً، ودعوة المسلمين إلى فهم ذلك جيداً لجعل المسلمين في هذه الأجواء وعدم ابتعادهم عن أمرٍ يُحقّق لهم أجراً وإفادة في فهم خلفياتنا التاريخية وتصحيح كثير من المسارات التي أخذ المنبر يُساهم في إلقاء الضوء عليها، فأنا واثق من أن كثيراً من المسلمين يجهلون أدلةً مشروعية المجالس الحسينية وإباحة البكاء على مطلق الموتى من المؤمنين والحزن عليهم وراثتهم بدليل بكاء النبي «صلى الله عليه وآله» يوم مات عمه أبو



طالب، ويوم شهادة عمه حمزة، ويوم شهادة شهداء مؤتة، ويوم وفاة ابنه إبراهيم، وبكاء سيدة نساء العالمين فاطمة «عليها السلام» على جعفر بن أبي طالب، وأمر النبي بالبكاء على حمزة، وبكاء عمر بن الخطاب على أخيه زيد، وبكاء عائشة أم المؤمنين عند قبر أخيها عبدالرحمن، وبكاء الخنساء وهي صحابية جليلة على أبنائها وورثاتهم، وهكذا. وأعتقد أن التوفّر على مثل هذه الوقائع لا يترك مجالاً لمعترض ويحمل المسلم على الإذعان .

وفي الوقت ذاته التحرك بحذر وبمنتهى البراعة في إدانة خصوم أهل البيت ومن اشترك في أحداث واقعة الطف وذلك كعملية ترويض لأعصاب كثير من المسلمين الذين لا يسهل عليهم الاعتراف بأن يزيد وأهله يمكن أن يصدر عنهم ذلك، وهم يتمتعون بحصانة الصحابة .

إن العملية تحتاج إلى صبر طويل وجهد كبير لعرض الآثار المروية في ذلك، وإيراد آراء علماء أهل السنة في قتال يزيد، مثل الكياهراسي وابن مفلح والحسيني وأبو الحنبلي والألوسي وغيرهم.

ختاماً.. بقدر ما أسعدني وشرفني الاحتيار من قبل
إدارة مسجد سيد هاشم بهبهاني لأقدم هذا الكتاب المتميز
والراقي بقدر ما ضاعف من مسؤوليتي تجاه الجميع، وأتمنى
أن أكون قد وفقت بذلك وأعتذر عن أي قصور تجاه صاحب
ذلك التقديم، كما أتضرع إلى الله «عز وجل» أن يحفظ
ويرعى الجميع وبالأخص سماحة الشيخ الجليل علي حسن
غلوم ويمدّ في عمره ويسدّد على الخير خطاه ومساعدته
لخدمة الدين، وأن يُديم عليه نعمة الصحة والعافية ونتمنى
لسماحته مزيداً من التقدّم والرقى في شتى المجالات.
والله ولي التوفيق.

متعلم علي سبيل نجاة

علي حسن عبد الحسين محمد

الكويت: أكتوبر ٢٠٢٠

قوة الجذب الحسينية

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ
اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ
اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^(١).

(١) سورة الأنعام: ١٢٤.

تحكي هذه الآية الشريفة واحدة من أساليب بعض المشركين في مواجهة الرسالة. فعندما كانت تأتيهم آية من آيات الله «عز وجل» توضّح لهم حقيقة الوحي، وأن القرآن الكريم منزل من عند الله، وأن محمداً «صلى الله عليه وآله» مبعوث على وجه الحقيقة من قبل الله، كان بعضهم يلجأ إلى طلب أن يُنزل الله عليهم الوحي كما يُنزل على النبي، وأن يتلقّوا من الله علماً ومعارف كما كان يتلقاها النبي، وأن يروا الملك كما رآه النبي.

واختلف في دافعهم لمثل هذا الطلب:

١. تعجيز النبي «صلى الله عليه وآله» والمكابرة والمكر في مواجهة دعوته التي اعتمدت على المنطق والدليل.
٢. الاستهزاء بالرسالة وصاحبها، دون أن يكون طلبهم هذا على نحو الحقيقة.
٣. رغبة حقيقية في تحصيل ذلك لتكون لهم بذلك جائزة إلهية تتحقق لهم من خلاله الرفعة والمكانة والمنزلة الرفيعة، ليكونوا متبوعين لا تابعين، ومخدومين لا خادمين، ويحافظوا على موقعهم الرفيع في المجتمع.

٤. الحسد للنبي «صلى الله عليه وآله»، والحاسد يندفع دائماً لكي يسلب النعمة من الطرف المقابل أو أن يحصل هو على حصل عليه المحسود.

وقد قيل أن الوليد بن المغيرة قال: (والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها من محمد، فإني أكثر منه مالاً وولداً) ^(١) فنزلت هذه الآية... ولربما الأمر أوسع من دائرة مقولة شخص واحد. ولعل الآية تشير إلى ما جاء في سورة المدثر أيضاً حيث قال «عز وجل»: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً﴾ ^(٢)، فالمسألة لا تخص فرداً واحداً، لاسيما بلحاظ صيغة الجمع في الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ وهذا يدل على أن جماعة منهم كانوا يقولون هذا الكلام.

يضاف إلى ذلك أن الآية السابقة لها، تدل على ذلك أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ ^(٣).

(١) الرازي: التفسير الكبير، ج١٢، ص١٧٥.

(٢) سورة المدثر: ٥٢.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٣.

وهناك تأويل آخر لطلبهم هذا، وهو أنهم ما طلبوا النبوة وما يخصّها، وإنما طلبوا أن تأتيهم آيات مادية ظاهرة مثل تلك التي نزلت على بعض الأنبياء المتقدمين كي تدل على صحة نبوة محمد «صلى الله عليه وآله»، من قبيل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وانقلاب العصى إلى أفعى... إلخ، وذلك كما حكاه عنهم «تعالى» في قوله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١).

ولكن التأويل الأول أقوى وأوضح، بل إن قوله في نفس الآية: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ لا يليق إلا بالتأويل الأول.

وعلى العموم فقد جاء الرد موضحاً أن مسألة الرسالة ليست مسألة مزاجية أو وفقاً للمحسوبيات أو خالية من المعايير، بل إن للرسالة موضعاً مخصوصاً لا يصلح وضعها

إلا فيه، فمن كان مخصوصاً موصوفاً بتلك الصفات التي لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولاً وإلا فلا، والعالم بتلك الصفات ومن يتصف بها ليس إلا الله «تعالى»: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. وهذا يتناغم مع قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ هل يشمل هذا العطاء والمقام الإلهي كل من ينتمي لهذا البيت أم أن المسألة خاضعة لأسس معينة؟ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ومن ظريف ما استفيد من قوله «تعالى»: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أنها تتضمن تنبيهاً على أن أقل ما لا بد منه في حصول النبوة والرسالة: البراءة عن الدوافع التي جعلتهم يطلبون أن ينزل الله عليهم ما أنزل على النبي، سواء أكان دافعهم المكر والغدر، أو الإصرار على الباطل والاعتماد على السخرية والاستهزاء في مواجهة الحق، أو الحصول على الامتيازات المادية والمعنوية من خلال المنصب، أو الغل والحسد.



ثم تحدثت الآية عن مصير هذا النموذج: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو على عكس ما طلبوه تماماً، لأن نزول الرسالة على أحد - من دون شك ولا ترديد - شرف ورفعة وعلو منزلة، كما أنه على عكس ما سعوا إليه في مواجهتهم لرسول الله وإنكاراً للرسالة، حيث كانوا يريدون المحافظة على مواقعهم المتقدمة في المجتمع واستعلائهم بذلك على الناس، أما مصيرهم فسيكون عكس ذلك تماماً، وهو الصغار، وسيجدون فوق هذا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾. وفي قوله: ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وجوه:

الأول: أن يكون المراد أن هذا الصغار إنما يحصل في الآخرة، حيث سينالون من المهانة ما ينالونه مما تحدث عنه القرآن أحياناً بقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١)، وقوله «تعالى»: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: ١٧٨.

(٢) سورة الحاقة: ٣٠-٣٢.



الثاني: أنهم يصيبهم صغار في دار الدنيا بحكم الله وإيجابه، وقد وقع ذلك لكبار المشركين يوم بدر الكبرى حيث أسر منهم مَن أسِر، وقُتل منهم من قُتل، حتى أن أمية بن خلف المستكبر قُتل على يد من كان يتعذب تحت يديه، وهو بلال العبد المستضعف. في البداية والنهاية لابن كثير: (عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة. وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سَمَّاكه أبوك؟ قال: فأقول: نعم! قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه. قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت. قال: فأنت عبد الإله. قال: قلت: نعم! قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه فأحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده، قال: ومعي أذراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها فلما رأيته. قال: يا عبد عمرو فلم



أجبهه. فقال: يا عبد الإله. فقلت: نعم! قال: هل لك في؟ فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك؟ قال: قلت: نعم ها الله. قال: فطرح الأذراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه. وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط..... قال: ثم خرجت أمشي بهما..... فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام - فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أسيري، قال: لا نجوت إن نجا. ثم قال: صرخ بأعلا صوته يا أنصار الله! رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة السوار (فأنا أذب عنه) رغبة في أن يبقيه حياً ليفتدى بمال فيكون غنيمة له (قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط. قال: قلت: انج بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيا فهم حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، فجعني بأذراعي وبأسيري^(١)).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٩.



وفي رواية البخاري في صحيحه أن سبب دفاعه عنه هو كتاب متبادل بينهما لا الرغبة في الفداء: (كاتب أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة) أي في مالي أو حاشيتي أو أهلي ومن يصغي ويميل إليه (وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية. فكاتبته «عبد عمرو». فلما كان في يوم بدر، خرجت إلى جبل لأحرزه) أحفظه (حين نام الناس فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا وكان رجلا ثقيلا فلما أدركونا قلت له ابرك فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه)^(١).

وعلى العموم، يمكننا أن نتصور مقدار الذل والمهانة

(١) البخاري: صحيح البخاري، ج ٢٢٠٧.

التي عاشها أمية المستكبر في أواخر لحظات حياته في مثل هذا المشهد المهين، وهو مجرد مثال من الأمثلة على الوعيد الإلهي.

الثالث: وقد يكون المراد أنه يصيبهم صغار في الدارين، الدنيا والآخرة.

• مفردات تاريخية:

وعندما نرجع إلى كتب التاريخ والحديث، نجد هذه الجملة الواردة في الآية القرآنية: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ قد تحوّلت على لسان البعض إلى عبارة تقال كلما انبهروا وتأثروا بموقف صادر عن أحد ممن ينتمي إلى بيت الرسالة المحمدية.

المورد الأول: ما نقله ابن شهر آشوب عن المبرد وابن عاتشة حول موقف للإمام الحسن «عليه السلام» وذلك: (أن شامياً رآه راكباً، فجعل يلغنه والحسن لا يرد فلما فرغ أقبل الحسن «عليه السلام» فسلم عليه وضحك فقال: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت، فلو استعيتنا أعتبنك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك،



ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عريانا كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنياناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً. فلما سمع الرجل كلامه، بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، **الله أعلم حيث يجعل رسالته** وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إلي والآن أنت أحب خلق الله إليّ، وحولّ رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقدا لمحبتهم^(١).

المورد الثاني: يخص موقفاً للإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام»، قال الطبري في تاريخه: (وفى هذه السنة وُلِّي الوليد عمر بن عبد العزيز المدينة. قال الواقدي قَدِمَهَا والياً في شهر ربيع الأول وهو ابن خمس وعشرين سنة، ووُلِدَ سنة ٦٢، قال: وقدم على ثلاثين بغيراً، فنزل دار مروان. قال فحدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: لما قَدِمَ عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل دار

(١) ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ١٩،



مروان دخل عليه الناس فسلموا، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله ابن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن يزيد، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظُلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يُجزونه خيراً، وافترقوا. قال: وكتب الوليد إلى عمر يأمره أن هشام يقف بن إسماعيل للناس، وكان فيه سييء الرأي..... قال: وحدثني محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر عن أبيه قال: كان هشام بن إسماعيل يُسبّ جوارنا ويؤذينا، ولقي منه علي بن الحسين أذى شديداً، فلما عُزل أمر به الوليد أن يوقّف للناس، فقال: ما أخاف إلا من علي بن الحسين. فمرّ به علي، وقد وقّف



عند دار مروان، وكان علي قد تقدّم إلى خاصته أن لا يعرض له أحدٌ منهم بكلمة، فلما مرّ ناداه هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته^(١).

المورد الثالث: في كتاب (أعيان الشيعة) للسيد محسن الأمين نقلاً عن كتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان) لعبدالله بن أسعد اليافعي اليميني شاهد آخر يرتبط أيضاً بالإمام علي زين العابدين «عليه السلام»، قال: (روي أنه تكلم رجل فيه وافترى عليه، فقال له زين العابدين: إن كنتُ كما قلت فاستغفر الله، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك. فقام إليه الرجل وقبّل رأسه وقال: جُعِلَ فداك، لست كما قلت، فاغفر لي. قال: غفر الله لك. فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته^(٢)).

المورد الرابع: في الكافي أن عبد الله بن نافع الأزرق - وأبوه مؤسس فرقة الأزارقة إحدى فرق الخوارج - كان

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٢١٧.

(٢) الأمين: أعيان الشيعة، ج ٢، ص ٦٢٨.

يقول: (لو أني علمت أن بين قطريها أحداً تبلفني إليه المطايا يخصمني أن علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحلت إليه، فقل له ولا ولده؟ فقال: أفي ولده عالم؟ فقل له: هذا أول جهلك، وهل يخلون من عالم؟ قال: فمن عالمهم اليوم؟ قيل: محمد بن علي بن الحسين بن علي. قال: فرحل إليه في صناديد أصحابه حتى أتى المدينة فاستأذن على أبي جعفر «عليه السلام»، فقل له: هذا عبد الله بن نافع. فقال: وما يصنع بي، وهو يبرأ مني ومن أبي طرفي النهار؟ فقال له أبو بصير الكوفي: جعلت فداك إن هذا يزعم أنه لو علم أن بين قطريها أحداً تبلفه المطايا إليه يخصمه أن علياً «عليه السلام» قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحل إليه، فقال له أبو جعفر «عليه السلام»: أترأه جاءني مناظراً؟ قال: نعم. قال: يا غلام، اخرج فحط رحله، وقل له: إذا كان الغد فأتنا. قال: فلما أصبح عبد الله بن نافع غداً في صناديد أصحابه، وبعث أبو جعفر «عليه السلام» إلى جميع أبناء المهاجرين والأنصار فجمعهم ثم خرج إلى الناس في ثوبين ممغرين) مصبوغين بأكسيد

الحديد ولونه أحمر (وأقبل على الناس كأنه فلقة قمر فقال: الحمد لله مُحيِّث الحيث، ومُكيِّف الكيف، ومؤيِّن الأين. الحمد لله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض -إلى آخر الآية- وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً «صلى الله عليه وآله» عبده ورسوله، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، الحمد لله الذي أكرمنا بنبوته، واختصنا بولايته، يا معشر أبناء المهاجرين والأنصار، مَنْ كانت عنده منقبة لعلي بن أبي طالب، فليقم وليتحدث. قال: فقام الناس فسرّدوا تلك المناقب. فقال عبد الله: أنا أروى لهذه المناقب من هؤلاء، وإنما أحدث عليّ الكفر بعد تحكيمة الحكمين! حتى انتهوا في المناقب إلى حديث خبير: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كراماً غير فرار، حتى لا يرجع، يفتح الله على يديه. فقال أبو جعفر «عليه السلام»: ما تقول في هذا الحديث؟ فقال: هو حق لا شك فيه، ولكن أحدث الكفر بعد. فقال له أبو جعفر «عليه السلام»: ثكلتك أمك! أخبرني عن الله «عز وجل» أحبّ عليّ ابن أبي طالب يوم أحبه، وهو يعلم أنه يقتل



أهل النهروان، أم لم يعلم؟ قال: فإن قلت: لا، كفرت. قال: فقال: قد علم، قال: فأحبّه الله على أن يعمل بطاعته أو على أن يعمل بمعصيته؟ فقال: على أن يعمل بطاعته، فقال له أبو جعفر «عليه السلام»: فقم مخصوماً، فقام وهو يقول: حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) أي قد اتضحت الحقيقة (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (١).

المورد الخامس: في البحار أنه أتى أعرابيُّ الباقر أو الصادق «عليه السلام» فقال: (أرأيت الله حين عبده؟ فقال: ما كنت لأعبد شيئاً لم أره، قال: كيف رأيته؟ قال: لم تره الابصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقيقة الايمان، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، هو الله الذي لا إله إلا هو، فقال الاعرابي، الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٢).

المورد السادس: في أمالي الصدوق أنه جاء رجل اسمه (صندل) أو (مندل) فقال لجعفر بن محمد «عليهما

(١) الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٣٥١.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٧.

السلام»: (يا أبا عبد الله، إن هؤلاء الشباب يجيئوننا عنك بأحاديث مُنكرة فقال له جعفر «عليه السلام»: وما ذاك يا صندل؟ قال: جاؤونا عنك أنك حدثتهم أن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها؟ قال: فقال جعفر «عليه السلام»: يا صندل أستم رويتم فيما تروون أن الله «تبارك وتعالى» ليغضب لغضب عبده المؤمن، ويرضى لرضاها؟ قال: بلى. قال: فما تتكرون أن تكون فاطمة «عليها السلام» مؤمنة يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها؟ قال: فقال له: الله أعلم حيث يجعل رسالته»^(١).

المورد السابع: يخص الإمام موسى الكاظم «عليه السلام». ففي مقاتل الطالبين: (حدثنا يحيى بن الحسن قال: كان موسى بن جعفر إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بَصْرَة دنانير، وكانت صراره ما بين الثلاثمائة إلى المائتين دينار، فكانت صرار موسى مثلاً) أي يضرب بها المثل. ثم ينقل الأصفهاني شاهداً على ذلك، حيث أن رجلاً كان يشتم علي بن أبي طالب إذا رأى موسى بن جعفر،

(١) الصدوق: الأمالي، ص ٣٥٢.

ويؤذيه إذا لقيه، فقال له بعض مواليه وشيعته: دعنا نقتله، فقال: لا، ثم مضى راكباً حتى قصده في مزرعة له فتواطأها بحماره، فصاح: لا تدس زرعنا. فلم يُصغِ إليه، وأقبل حتى نزل عنده فجلس معه وجعل يضاحكه، وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟ قال: مائة درهم. قال: فكم ترجو أن تربح؟ قال: لا أدري. قال: إنما سألتك كما ترجو. قال مائة أخرى. قال: فأخرج ثلاثمائة دينار فوهبها له. فقام فقبل رأسه)، فلما دخل الإمام المسجد بعد ذلك، وثب ذلك الرجل فسلم عليه وجعل يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته، فوثب أصحابه عليه وقالوا: ما هذا؟ فشاتهم، وكان بعد ذلك كلما دخل موسى خرج يسلم عليه ويقوم له). فقال الإمام للرجل الذي اقترح قتل الشاتم: (أيما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت؟) (١).

وهذه مجرد نماذج قليلة من موارد عديدة جاءت في كتب الحديث والتاريخ وتخص آل بيت النبوة، وهي في غالبها تخص أئمة أهل البيت «عليهم السلام»، وفي بعض الموارد

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص ٣٣٢.

نجد ذات التعبير لموقف صادر عن أحد من ذريتهم.

وهذا يعكس ما ترسّخ في وجدان المسلمين أن بيت الرسالة متميّز عن سائر البيوت، لأنهم مصداق من مصاديق قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

قال السيوطي في تفسيره الدر المنثور: (وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قال قرأ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» هذه الآية ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء. فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله، هذا البيت منها؟ - لبيت علي وفاطمة - قال: نعم، من أفاضلها)^(٢).

(١) سورة النور: ٣٦-٣٨.

(٢) السيوطي: الدر المنثور، ج ٥، ص ٥٠.

• جاذبية متعددة الجوانب:

وبالتالي، فعندما خرج الحسين «عليه السلام» للثورة على الأمويين ما كان خافياً على الناس من هو الحسين أو ماذا يمثل، نعم، كانت هناك فئات من الناس حديثة العهد بالإسلام، أو عاشت بعيدة عن المدينة المنورة وعن التعاليم الحقيقية للإسلام، ولكن أيضاً كانت هناك فئات كبيرة تعرف ماذا يمثل الحسين، ومن أي بيت هو، وأنه من بيت الرسالة، وأن هذا البيت لا يمتلك رصياً فقط بلحاظ الانتماء، بل هناك تربية خاصة لأبناء هذا البيت، وهناك صفات عُرفوا بها، ومن أهمها أنهم الأمناء على الرسالة بوصية من رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً) وكانت عترته أحد العنوانين.

وحيث أن رسول الله قد عرّفهم بهذه الصورة إذاً لا بد وأن تكون جهود أهل هذا البيت رسالية لا مصلحة، وعلى الأقل الأسماء البارزة في هذا البيت كعلي والحسن والحسين «عليهم السلام».

وبالتالي كانت للحسين جاذبية متعددة الجوانب، واحدة منها خروجه من التفكير الشخصي المصلحي إلى التفكير بالآخرين ومصالحهم، والتفكير بالمصلحة الرسالية والاستعداد للتضحية من أجل ذلك. ومن يحمل مثل هذا الهم ومثل هذا المشروع لابد وأن يكون جاذباً للآخرين.

عندما قال الإمام الحسين «عليه السلام» في وصيته لأخيه محمد ابن الحنفية عندما صمم على الخروج من المدينة: (وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب)^(١)، كان حرياً بمن يسمع هذا أو يطلع عليه أن يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته).

عندما يحمل الإنسان أهدافاً عليا، وتطلعات إصلاحية، ومشروعاً عاماً، فمن الحري أن يكون في شخصه وفي حركته قد حمل عنصراً من عناصر الجاذبية.

(١) العسكري: معالم المدرستين، ج ٣، ص ٥٠.

ماذا يملك المنصف أن يقول حين يقرأ هذه الكلمات التي ناجى فيها الحسينُ ربه أمام جمع من الحجاج في منى مكرراً منطلق أبيه كما جاء في نهج البلاغة؟ ففي كتاب (تُحَفُّ العقول) للحراني: (قال سليم بن قيس: حج الحسين بن علي صلوات الله عليهما، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر معه، فجمع الحسين «عليه السلام» بني هاشم والصحابة، فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادقه، عامتهم من التابعين، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله»، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه) إلى أن قال «عليه السلام»: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافسا في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنري المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسنتك وأحكامك، فإنكم إلا تتصروننا وتتصفوننا قوي الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير»).

قال عبدالله العلالي في كتابه (الإمام الحسين):

(ومما لا خلاف فيه بين الرواة أن الحسين «عليه السلام» كان محبباً إلى كل نفس، ومصطفى بين كل قبيل، وزادت جاذبيته إلى الناس أنهم غدو يقدسونه تقديساً وينظرون إليه بالنظر الذي هو فوق اعتبارات الناس)

ولذا كانت الجاذبية الحسينية فاعلة حتى بعد استشهاده وإلى هذا اليوم على الرغم من مرور قرابة ١٤ قرناً، فتأثر به المسلمون كما تأثر - وما زال يتأثر به غيرهم - سواء من كانوا من أهل الكتاب أو من سواهم، وإن لم نعمل نحن على تقديمه للأمم بالشكل السليم والمطلوب، اللهم إلا بعض الجهود البسيطة والمتواضعة هنا أو هناك مما نشهده في كل عام.

لقد استمرت جاذبية الحسين «عليه السلام» رغم ضغط الطغاة، ومحاولتهم إطفاء نور الله بمختلف الأساليب بما في ذلك هدم قبره وإخفائه، إلا أنه صار رغم أنف الطغاة مجتمع الثائرين على الباطل، وملتقى الساعين نحو التحرر من الظلم والفساد.

التفرعن والتنمر

من خلال الحديث القرآني عن فرعون النبي موسى
«عليه السلام»، أخذت الشخصية الفرعونية طابعاً خاصاً
في الثقافة العربية، وفي الذهنية العامة.. فهو:

١. الطاغوت الذي تضخّمت شخصيته بحيث لا يرى إلا



ذاته المتعالية: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(١).

٢. وطغيانه هذا يدفعه إلى احتقار كل من سواه، وتبرير كل ما يفعله، لأن كل ما يفعله هو الصواب، بل هو في ذاته ووجوده عين الصواب: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٢).

٣. وهذا التعالي قد يبلغ المرتبة التالية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(٣). وليس بالضرورة أن يقول هذا الكلام.. ولكن لربما أفعاله هي التي تنمُّ عن ذلك، بحيث يجعل نفسه كالإله، يفعل ما يشاء.

٤. ومن أجل أن يسيطر ويحقق لنفسه ما يريد، ولأنه لا يرى قيمةً للآخرين الذين يقعون تحت نفوذه، فهو يمارس معهم ما شاء من صور الطغيان: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤).

(١) سورة طه: ٢٤.

(٢) سورة غافر: ٢٩.

(٣) سورة القصص: ٢٨.

(٤) سورة القصص: ٤.



وليس بالضرورة أن تبلغ أفعال الشخصية الفرعونية هذا المستوى من الإجرام، ولكنها من هذا النمط المفرق والمؤذي والمدمر للنفس وللشخصية.

٥. وهو متمادي في أفعاله وتصرفاته وطغيانه إلى درجة الإسراف فيها: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١).

٦. وقد تبلغ الأمور مستوى من الطغيان الذي يتمنى فيه مَنْ وقع تحت سلطانه الخلاص منه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

وهكذا ظهر عنوان (فرعون) واشتقاقات هذه الكلمة من قبيل: (تفرعن) و (متفرعن) لتدل في الذهنية العامة على رمزية الطغيان والتعالي والتجبر.

بالطبع، ليس بالضرورة أن يكون الإنسان في موقع الحكم كي يكون فرعوناً.. ففي كل موقع فيه نوع من القيادة والسلطة

(١) سورة يونس: ٨٣.

(٢) سورة التحريم: ١١.

يمكن أن يظهر لنا فرعون بحجم مختلف وبهيئة مغايرة.

في دائرة العمل والوظيفة يمكن أن يظهر فرعون.. وفي العمل الحزبي يمكن أن يظهر فرعون.. وفي الشارع يمكن أن يظهر فرعون.. وفي الدوائر التعليمية يمكن أن يظهر فرعون.. وفي البيت يمكن أن يظهر فرعون.. وهو ما أود أن أتحدث عنه اليوم.

• فرعون الأسرة:

بعض الأسر تعاني من رب الأسرة المتفرعن.. الزوجة تعاني.. والأبناء يعانون.. ولربما عانت منه أيضاً زوجات أبنائه في المستقبل، وعانى منه أحفاده. كل الصور التي تحدثت عنها حول فرعون حاضرة في شخصيته وتصرفاته وطريقة إدارته. وهذا قد يؤدي إلى تدمير شخصية أبنائه، إذ يلغي كل رأي لهم، حتى إذا دخل هذا الولد عالم الزواج فقد القدرة على إدارة بيت الزوجية، وكان أبوه هو الذي يوجهه كدفعة السفينة. ولا يعرف هذا الولد من إدارة بيت الزوجية إلا الصورة التي رسخت في ذهنه من ممارسات أبيه.. ضرب وشتائم وإهانات وتحقير.

وقد تتخذ الشخصية المتفرعة إجراءات وقرارات تدمر الأسرة اجتماعياً أو اقتصادياً، وذلك بقرار أحرق ومزاجي، بلا تفكير سليم، ولا استشارة، ولا مشاركة زوجته وأبنائه في ذلك.. يصدر الفرمان وعلى الجميع أن يطيعوا. يدخل رب الأسرة في نزاع شخصي مع إخوانه مثلاً، أو مع بعض أهل زوجته، ويصدر الأمر الفرعوني.. منع تام لأي نوع من التواصل الاجتماعي معهم! قطع أرحام قد يمتد لعقود من الزمان، ويتوارثه الأبناء.. والتبرير حاضر: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

بمعاملة (تجارية) مزاجية يفقد من خلالها ممتلكاته بما في ذلك المنزل الذي يؤوي الأسرة، ويحوّل حياتهم الكريمة إلى جحيم الديون والسجون... يجلس في الديوانية، ويتأثر بالكلام الذي يدور فيها، ويُغرى بالأرباح السريعة، ولا يفكر باحتمالات الخسارة التي قد تضيق كل شيء، وهذه هي النتيجة.

المطلوب من رب الأسرة أن يمارس قوامته: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا

مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿١﴾، إلا أن القوامة شيء، والتفرعن شيء آخر.
 فالقوامة لا تعني إلغاء الآخر، الزوجة.. والأبناء.. فلا رأي
 لهم، ولا قيمة، ولا هوية، ولا اختيار، ولا شخصية مستقلة..
 خاصة في القرارات المهمة والكبيرة والمصيرية.. بل تعني
 القيادة والإدارة.. وهذا في حد ذاته فن، ويحتاج إلى مهارات.
 وعندما تطلع اليوم على فن الإدارة تُدرك أنّ المدير الناجح
 هو الذي يستطيع الارتقاء بالمهمة الموكلة إليه بمساعدة
 مرؤوسيه، ولعل أبلغ ما يصور ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ
 مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢).

على مستوى أسلوب القيادة، هناك حزم وهناك لين..
 فالإنسان الفظ غليظ القلب شخصية طاردة، ولو كان زوجاً
 أو أباً.. قد يصل إلى مبتغاه، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى
 القلوب. وإذا كانت هناك أمور لا يستطيع التنازل عنها، لأنها

(١) سورة النساء: ٣٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.



لا تصبّ في مصلحتهم، أو لأنها محرّمة، المطلوب هنا أن يكون حازماً.. والحزم لا يعني العنف الكلامي، ولا العنف الجسدي.. ولذا عليه أن يمزج هذا الحزم باللين.. أن يبيّن لهم لماذا.. وأن يُظهر لهم المحبّة.. وأن يدعو لهم بالخير.

وكما قال علي «عليه السلام»: (وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ) وليس بالضرورة أن يكون حاكم دولة، فالرعية هم من يرعاهم (وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ)^(١).

ثم على مستوى القرارات الهامة والكبيرة يجب أن ينتبه رب الأسرة إلى أنه قد تغيب عنه بعض التفاصيل.. وقد لا ينتبه إلى بعض النتائج السلبية المحتملة.. كما أن أصل إشراك أسرته في قراراته يحسّسهم بقيمتهم وأهميتهم عنده.

• الزوجة المتنمرة:

وفي مقابل الزوج المتفرعن، هناك الزوجة المتنمّرة، والمصطلح مشتق من (النمر)، فكما ذكرتُ أنّ الشخصية

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

الفرعونية المعروضة في القرآن تركت أثرها على اللغة والثقافة العربية، فظهر مصطلح التفرعن، كذلك نجد مصطلح (التنمر) المشتق من النمر، وهو المفترس المعروف. جاء في المعاجم: (تنمر الشخص: نمر؛ غضب وساء خلقه، وصار كالنمر الغاضب). ولذا صار يُطلق على المرأة العنيفة، وذات اللسان السليط مصطلح (المتنمرة)، وفي التعبير الشعبي الدارج عندنا (النسرة) اشتقاقاً من طائر النسر الجارح. ومن لطيف ما قرأت قول الحكيم (بزرجمهر) أحد وزراء بلاد فارس: (صارعت الوحوش فصرعتهم، وجالدت الشجعان فغلبتهم، فلم ترهيني إلا المرأة السليطة اللسان). وللعلامة الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) مقولة أخرى طريفة، قال: (الصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء).

وكل زوج معرض لأن يكون في موقع تمارس من خلاله زوجته ضغطاً نفسياً كبيراً بحيث تدفعه إلى اتخاذ موقف مخالف لرغبته، حتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» اضطر لأن يتنازل عن مباح ويُقسم على تركه تحت ضغط



بعض أزواجه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

تحكي سورة التحريم واحدة من صور المعاناة ذات الطابع الاجتماعي التي واجهها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهي ذات طابع خاص، ولدائرة خاصة، لأنها ترتبط بالخصوصية الأسرية للنبي.

وعرضها في القرآن الكريم وبهذه الصورة الممزوجة بالوعيد: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ، عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾^(٢) يعطي انطباعاً بأن القضية تركت أثراً نفسياً عميقاً في مشاعر النبي «صلى الله عليه وآله»، الأمر الذي استدعى التدخل السماوي انتصاراً له، وحسماً للموقف.

(١) سورة التحريم: ١-٢.

(٢) سورة التحريم: ٣-٤.

والذي يؤكد هذه الصورة ما قام به النبي للتخلص من الضغط الممارس عليه، إذ أقسم على ترك أمرٍ لم تذكر الآيات ماهيته، ولكننا نعرف من السياق أنه كان في الأصل أمراً مباحاً له، فأثر الامتناع عنه، والغاية بحسب تعبير الآية: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

في موروثنا الإسلامي هناك أحاديث عديدة تحاول من خلال الضرب على الوتر الأخرى أن تُهذَّب سلوك هذه النوعية من النساء خوفاً من سوء العاقبة، وذلك من قبيل ما رُوي عن الصادق أنه قال: (أيما امرأة باتت وزوجها عليها ساخطٌ في حق، لم تُقبل منها صلاة حتى يرضى عنها)^(١). والقيد المذكور في هذا النص (في حق) مهم في فهم سائر النصوص، فليست المسألة مجرد غضب الزوج على زوجته مطلقاً، كي نقول أن هذه النصوص ذكورية، بل في الحالات التي يكون فيها الحق معه.. فالله هو الحكم العدل، وهو لا ينتصر لطرفٍ ما بلحاظ جنسه.

ومن جهة أخرى فإن هذه النصوص التي تتحدث عن

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٠٧.

العواقب الأخروية الوخيمة ليست مقصورة على المرأة كي يُقال مرة أخرى بأنها وُضِعَتْ انتصاراً للذكر على الأنثى، إذ نجد على سبيل المثال الحديث النبوي التالي: (أيما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً، ولا حسنةً من عملها، حتى ترضيه..... وكذلك الرجل إذا كان لها ظالماً) (١).

والمتتبع للأحاديث يجد أن هناك تأكيداً على حق الزوج في نيل الاحترام على المستوى الشخصي، والتقدير لمقام القِوامة الذي اختاره الله له ، وربط ذلك بالرضا الإلهي عنها في الآخرة، ومنها الحديث النبوي التالي: (لا تؤدي المرأة حق الله «عز وجل»، حتى تؤدي حق زوجها) (٢). وعنه «صلى الله عليه وآله»: (أيما امرأة لم ترفق بزوجها، وحملتة على ما لا يقدر عليه، وما لا يطيق، لم يقبل منها حسنة، وتلقى الله وهو عليها غضبان) (٣). وعن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: (أيما امرأة قالت لزوجها: ما رأيتُ

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢١٢.

(٢) الكليني: الكافي: ج ٥، ص ٩.

(٣) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٢١٤.



قَطُّ مِنْ وَجْهِكَ خَيْرًا، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهَا^(١).

هذه الصور المذكورة في القرآن وفي الأحاديث صورٌ نمطيّة متكرّرة تظهر في سلوك المرأة المتمرّة بأشكال وألفاظ متغايرة، ومؤداها واحد، وهي قد تكون ناتجة عن:

١. سوء تربية في البيت الذي نشأت فيه.
٢. أو تأثراً وتطبّعاً بسلوك أمّها، فلا تعرف أسلوباً آخر للتعامل مع الزوج سوى ذلك.
٣. أو نتيجة تسويلاتٍ وتحريضاتٍ صديقاتها أو وسائل الإعلام والتواصل.
٤. ولربما يساهم الزوج نفسه في نفخ رويّة التمرّ فيها، وذلك عندما تجد الزوجة أن زوجها ضعيف الشخصية، لا يملك ثقةً في نفسه، كثير التردد، قليل الهمة، غير مُبادر... أو قد تخلّى عن مسؤولياته وواجباته الأسرية الطبيعية، فهي التي تُنفق، وهي التي تتسوّق، وهي التي تُنجز المعاملات، وهي التي تتابع الشؤون التعليمية والصحية لأبنائها.. إلخ.

(١) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٤٠.



وبهذا تجد الزوجة أنَّ مَنْ يُفْتَرَضُ به أن تكون له القِوامة، وإدارة شؤون الأسرة بالأصالة، قد تخلى عنها، لتقوم هي بتقمّص شخصية (سي السيّد).

وأيّاً كانت الأسباب، فإنّ عاقبة مخالفة الفِطرة السليمة، والتمرد على نظام القِوامة في الأسرة والذي رسم معالمه القرآن الكريم، وذلك من خلال الدور الذي تمارسه الزوجة المتمرّة، لن تقف آثاره السلبية عند حدّ تهديد استمرار العلاقة الزوجية، بما يتناغم مع قول الله عزوجل لنبيه الكريم: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾، بل وتتجاوز ذلك لتلقي بظلالها على تربية الأبناء، وبناء شخصياتهم، وعلى المستقبل الأخرى المظلم الذي ينتظرها حين تقف بين يدي الله «عز وجل».

• التمر في أجواء كورونا:

بالطبع فإن التمر في الاستعمال الدارج لا يقتصر على سلوكيات الزوجة تجاه زوجها، بل هو عنوان عام قد يوصف به سلوك الأطفال مع بعضهم البعض كما يحصل

في المدارس أو الشارع أو من خلال المحادثة الإلكترونية، وهي مشكلة كبيرة وتحطم نفسية الطفل، وقد تجعله ييغض الدراسة أو العلاقات الاجتماعية، بل وفي بعض الحالات قد تدفع المراهق إلى الانتحار.

وقد اعتدنا سابقاً على مصطلح (الضغوط) في الاستعمال الدارج عندنا، وهو ذاته ممارسة التتمر بالضغط القولي والنفسي الكبير الذي قد يؤد الانفجار عند الطرف الآخر، أو التحطم داخلياً والانهيـار النفسي. وقد لاحظنا حالة من التتمر واضحة في بداية تفشي جائحة كورونا، وتمركزت أحياناً حول الموقف من الوافدين على اختلاف جنسياتهم، وما أثير من كلمات أخذت صورة الاستهزاء والسخرية والطعن، مع مطالبات وصلت أحياناً إلى حد اللا إنسانية مع فئات موجودة أصلاً للعمل بما يساهم في تحقيق التنمية في المجتمع بصورها المختلفة على مستوى التعليم والبناء والنظافة والخدمات الصحية وغير ذلك. كل ذلك مع ارتفاع وتيرة التعصب في وقت يتوقع فيه الإنسان أن ترتفع فيه منسوب الإنسانية عندما يشاهد أو يتلمس



معاناة الآخرين، لاسيما مَنْ فقدوا وظائفهم، وعجزوا عن تأمين لقمة العيش لأسرهم، وعاشوا الخوف من المستقبل المجهول، خاصة ونحن أبناء مدرسة الإسلام التي تركز على الجانب الأخلاقي والإنساني. بالطبع هذا لا يُخلي المسؤولية عن الطرف الآخر الذي ربما مارس أحياناً دوراً استفزازياً بصورة أو بأخرى، ولكن هل من السليم أن ينساق الإنسان وراء ذلك دون وعي وتدبّر في الموقف؟ وهل العنف في نقد هذه المواقف السلبية يعد أمراً حكيماً ومطلوباً؟

النقد في حد ذاته مطلوب، مع حفظ الأدب وإخلاص النية، ولكن العنف في النقد قد يدفع بالتدرّج نحو التئمّر كوسيلة من وسائل ردّ الاعتبار، أو التشفّي، أو الانتقام، أو تفريغ شحنات الغضب الكامنة بسبب هذه المشكلة، أو بسبب ضغوطات أخرى. والبنية النفسية والفكرية للفرد الذي يُنعت بالقسوة والشدة، وبالتالي بالتمركز حول الذات (ليس بالضرورة الذات الفردي بل لربما الذات النوعي) واستبعاد الآخر قد يكون عاملاً مهماً في بروز ظاهر العنف في النقد، ومن ثمّ التئمّر في المواقف وردود الأفعال.

وهذا الخل السلوكي والنفسي قد يكون ناتجاً أحياناً عن أن التكبر راسخ في شخصية الفرد، بحيث ينعكس من خلال مجموعة من السلوكيات، إحداها حالة النقد العنيف مع من نختلف معه، والتحول إلى موقف التمر بعد ذلك. والمشهود في بعض الحالات أن الأمر لم يقتصر على المقيمين والوافدين، بل لم يسلم حتى المواطنون إذا أخطأوا في تعليقة أو موقف ما، فالتعليقات لم تكن لترحمهم أبداً، ولم تهدأ هذه الحالة إلا بعد أن مضى وقت طويل على الوضع الاستثنائي خلال أزمة كورونا، وانشغل كثيرون بأنفسهم وتأمين احتياجاتهم، وانغلق قسم منهم على أنفسهم، وأصيب البعض بالاكئاب وغير ذلك.

وهذا يعكس خللاً أخلاقياً يحتاج إلى معالجة، وقد نكون نحن سبباً في إيجاده من خلال كثرة التركيز على الافتخار بالانتماء إلى عنوان ما. أنا لا أقول أنه ليس علينا أن نفتخر أننا ننتمي إلى هذا الوطن مثلاً، بل من لا يفخر بذلك يعتبر جاحداً، ولكن أقول أن يتحول ذلك إلى حالة شوفينية حيث يبالغ الوطني المتعصب في شعوره بذلك الانتماء بالمستوى



الذي يحوِّله إلى حالة احتقار واستعداد للآخرين انطلاقاً من النظرة الدونية لهم، ومن ثم الدخول في صراعات لا تعرف حداً، فكل ما له علاقة بهذا الوطن يمثل الحق مهما كان باطلاً في القوانين السماوية والوضعية.

وأقرب مثال على ذلك ما قام به المقبور صدام من مسخ مفهوم الوطنية والمواطنة ليحولها إلى عقيدة شوفينية دمّرت العراق وكلفت المنطقة بأسرها أثماً باهظة. وسبقه آخرون كموسيليني.

وقد يتحول الانتماء إلى دين أو مذهب إلى حالة عنصرية تسعى للتدمير والتسخير لا للهداية ولا للتعايش، ومن يرقب المشهد الاجتماعي والسياسي في الكويت - منذ أمد - يشعر بقلق من التنامي المطرد لخرافة التمييز العنصري والشوفينية والتعصب القبلي وحتى الديني والمذهبي. وما الثمن من وراء لك إلا المزيد من صور الصراع والتدمير لكل ما هو خير ولكل ما هو جميل في هذا الوطن المسكين الذي أراد حكماؤه في وقت ما من خلال الدستور في نص المادة (٢٩) منه أن يؤكدوا مبدأً إنسانياً إسلامياً حيث جاء

فيه: (الناس سواسية في الكرامة الإنسانية وهم متساوون لدى القانون في الحقوق والواجبات العامة) وقد قال نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» في أخريات حياته المباركة وأمام تجمع هائل من الناس: (الناس كلهم سواء كأسنان المشط)^(١)، وقال: (أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى)^(٢) أفضلية لا تعني احتقار الآخر، بل تعني توظيف ما عندك من عناصر الخير ليشاركك فيه الآخرون. ومن الطريف أن يأتي في المذكرة التفسيرية التي هي بمثابة امتداد للدستور ومكمل له بأن: (المشرع لم يشأ أن يضيف عبارة -أو اللون أو الثروة- رغم ورود مثل هذه العبارة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وذلك لأن شبهة التفريق العنصري لا وجود لها في الكويت)، ولعل ذلك المشرع لو عاش إلى هذه الأيام لغير رأيه كثيراً.

وكلاً من التفرعن والتنمر سببان من أسباب هدر وتبديد

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٥١.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٥.

الطاقات فيما لا طائلة منه، وعندما ينشغل أي مجتمع بتوافه الأمور، أو بمعالجة الضغوطات الممارسة عليه، فإنه لن يجني في نهاية المطاف سوى قتل روح الإبداع عنده، والعمل على مسخ ومحو شخصية من يُمارَس بحقه التفرعن والتنمّر، ومن هنا قال فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(١)، وكأنه يقول لهم: أنتم مجرد عناصر خاضعة لي، ولذا ندّد النبي موسى «عليه السلام» بسياسته هذه قائلاً لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢)؟ أي غاية ما يطمح إليه المرء أن يكون عبداً لفرعون وأن يُسمح له بالعمل في ملكه!

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣). ولما نجح في ذلك خضع الناس لفرعون وأدمنوا عبوديته: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٤).

(١) سورة غافر: ٢٩.

(٢) سورة الشعراء: ٢٢.

(٣) سورة الزخرف: ٥١.

(٤) سورة الزخرف: ٥٤.

• التفرعن الأموي:

وقد مارس الأمويون نفس هذه السياسة، حتى قال قائلهم: (إن السواد) جنوب العراق ووسطه (بستان لقريش)^(١) كما روى الطبري وابن الأثير وبرواية ابن أبي الحديد (وبني أمية)^(٢)! وانعكس ذلك في موقفهم عندما سيطر مسلم بن عقبة على المدينة المنورة بعد ثورة أهلها على يزيد، فدعا الناس للبيعة ليزيد على أنهم خول له، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم، ومن امتنع عن ذلك قُتل!

وكانت هذه مفردة من مفردات الانقلاب في حال الأمة الإسلامية ومسح هويتها، وعودته إلى الجاهلية بثوب وعناوين إسلامية، لذا كان من الطبيعي أن يتصدى الإمام الحسين «عليه السلام» لتصحيح هذا الانحراف. وقد جاءت ثورته بمثابة الصدمة للأمة لتفريق وتعود إلى رُشدها وتُدرِك ما خُطط لها، وإلى أين هي ذاهبة، الصدمة التي تُخرجها من حالة الرضا بالعبودية، والاستئناس بالذل والخضوع

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦٣٧.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٣٠.

للسلطان الفاسد. ولذا فإنه «عليه السلام» عندما استدعي من قبل والي المدينة ليبياع يزيد وقف وقال: (أيها الأمير، إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، ملعن بالفسق، ومثلي لا يبياع مثله)^(١).

قال الشيخ المفيد: (فقام الحسين في منزله تلك الليلة وهي ليلة السبت لثلاث بقين من رجب سنة ستين من الهجرة، واشتغل الوليد بن عتبة بمراسلة ابن الزبير في البيعة ليزيد، وامتناعه عليهم، وخرج ابن الزبير من ليلته عن المدينة متوجهاً إلى مكة)^(٢) ولم يدركوه.

وأضاف: (فلما كان آخر نهار السبت، بعث الرجال إلى الحسين «عليه السلام» ليحضر فيبياع الوليد ليزيد بن معاوية، فقال لهم الحسين: أصبحوا ثم ترون ونرى! فكفوا تلك الليلة عنه، ولم يحلوا عليه، فخرج «عليه السلام» من تحت ليلة، وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب متوجهاً نحو

(١) ابن طاوس: الملهوف في قتلى الطفوف، ص ٩٨.

(٢) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٣٤.



مكة، ومعه بنوه وبنو أخيه وإخوته، وجل أهل بيته إلا محمد ابن الحنفية^(١).

وذكرت بعض كتب التاريخ والمقاتل أن حواراً دار بين الحسين وابن الحنفية، وانتهى بأن دعا الحسين بدواة وبياض وكتب وصية لأخيه محمد، ومما جاء فيها: (وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله» أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب «عليه السلام» فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين)^(٢). ثم طوى الحسين الكتاب وختمه بخاتمه، ودفعه إلى أخيه محمد ثم ودّعه وخرج في جوف الليل متوجهاً مع من معه إلى مكة المكرمة لينفذ الخطوة الثانية من نهضته المباركة.

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٢٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٣٠.

الشريعة والإنسان

من الأمور التي أبرزتها أزمة تفشي جائحة كورونا جدلية العلاقة بين الشريعة والإنسان: هل الشريعة في خدمة الإنسان أم الإنسان في خدمة الشريعة؟ وما مدى واقعية الشريعة الإسلامية بحيث نستطيع أن نقول أن الشريعة في خدمة الإنسان؟

هذه الجدلية ليست جديدة، ولكن الأزمة التي عشناها مع جائحة كورونا وانقسام المتدينين ما بين مُصرٍّ على استمرار فتح المساجد والحرم المكي والمقامات الدينية وبعض المظاهر التي وازت ذلك، وفي المقابل الفئة الأخرى التي أصرت على أن لا استثناء في التعامل وفق القواعد الصحية والوقائية، مهما كانت درجة القداسة في الموقع الذي نتحدث عنه، وعلى رأسها الحرم المكي، هذه الأزمة وهذا الانقسام أعاد إلى المشهد الفكري جدلية العلاقة بين الشرعية والإنسان، وأيهما في خدمة الآخر.

لأننا إذا قلنا بأن الإنسان في خدمة الشرعية، فهذا يعني ضرورة إبقاء تلك المواقع الدينية فاعلة ونابضة بالحياة مهما قدّمنا من قرايين وتضحيات جسام في هذا الاتجاه، ومهما بلغ عدد الإصابات والوفيات، فالأهم أن نحافظ على استمرارية الطواف حول الكعبة، وعلى إقامة الجمعة والجماعات، وعلى اجتماع الناس في المقامات الدينية.

ألم يقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» التضحيات على مستوى النفس بتعريضها للاغتيال ليلة الهجرة، وبالتغرب



عن الوطن، وبخوض الحروب مع الأعداء، وفقدان عمه حمزة والعديد من أهله وأصحابه في المعارك وفي أحداث مؤلمة نُصرةً للدين؟ ألم يستشهد الحسين «عليه السلام» من أجل الدين؟ ألم يقدم التضحيات على مستوى النفس والأقربين والأصحاب من أجل أن يبقى الدين حياً؟ فما قيمة الحياة إن لم تبقى للدين قائمة؟ هذه المعطيات وسواها تؤكد على أن الإنسان في خدمة الشريعة، لا العكس، وعلى هذا فقد أخطأنا كمسلمين في طريقة تعاملنا مع الجائحة فيما له علاقة بالمقضايا التي لها ارتباط بالدين.

ومن أجل أن نصل إلى رؤية واضحة حول الموضوع نحتاج أن نستقريء بعض النصوص التي تبين موقعية الشريعة في الحياة وطبيعة العلاقة فيما بينهما، بما يمكنها أن تساعد على تقديم الإجابة على هذه الإشكالية:

• مهام النبي:

تحدث القرآن الكريم عن طبيعة مهمة الرسول في رسالته: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

الملاحظ هنا أن الآية ربطت بين ما جاء في الشريعة الإسلامية من إباحة وتحريم وبين عنواني الطيبات والخبائث، أي بين ما هو في مصلحة الإنسان وبين ما هو مضر له.. فالطيب حلال، والخبث حرام. أي أن مسألة الإباحة والتحريم ليست عبثية ولا اعتباطية ولا مزاجية ولا تحكّمية، بل وُضعت تشريعاتها وفق ما يحقق مصالح الفرد أو المجموع البشري. وهذا ما يجعلنا نقول أن الشريعة في خدمة الإنسان، ولولم تكن كذلك لكان هذا الوصف المذكور في الآية وصفاً غير مطابق للحقيقة، ولوجدنا تشريعات لا تصب في مصلحة الإنسان، وهي مضرّة به على المستوى الجسدي أو النفسي أو الأخلاقي أو الاجتماعي أو المادي، والديني أو الأخروي.

والذي يؤكد هذه الفكرة أن الآية الشريفة جعلت من

أهداف إرسال النبي «صلى الله عليه وآله» وإنزال الشريعة عليه رفع الأثقال وحط الأغلال عن الناس، تلك الأثقال والأغلال الناتجة عن العادات والتقاليد التي لم يأمر بها الله، ولكن الأعراف الاجتماعية هي التي ألزمتهم بها، فواجهوا من خلالها بعض الصعوبات والتعقيدات والالتزامات، وجاءت الشريعة لترفع عنهم كل ذلك وتحررهم منها.

ونلاحظ هذا المثال حول كيفية تحوّل عادة أو سلوك معيّن ضمن ظروف معيّنة إلى منهج وطريقة مقدسة في الحياة، في الوقت الذي تكون فيه هذه الطريقة من أسباب تعقيد الحياة ويتحوّل التدين بالشريعة ثقلاً وإصراراً: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(١).

لقد ابتدعوا من وحي قيم الرأفة والرحمة والسمو الروحي طريقة خاصة بهم هي الرهبانية، أرادوا لها أن تكون منطلقاً

للسمو الروحي، ولم تكن فرضاً من الله عليهم، ولم تنزل كشرعة عبادية، بل كانت استيحاءً فكرياً وروحياً من القيم الكبيرة التي أكدتها مفاهيم الإنجيل. ثم ما لبثت أن تحولت إلى طقوسٍ وعادات وشعائر خالية من الروح، وابتعدت عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان الخاصة، وتحولت إلى نوع من الأغلال التي تعيق الحركة الطبيعية للإنسان في الحياة، وكأنَّ الإنسان أصبح هنا في خدمة الشرعة لا العكس، وهذا ما لا يريده الله «سبحانه»، ولذا كان نزول هذه الآية الشريفة نموذجاً من نماذج رفع الشرعة الإسلامية الإصر والأغلال، وبالتالي مصداقاً من مصاديق أن الشرعة إنما جاءت لخدمة الإنسان.

في الكافي عن الصادق «عليه السلام» أنه قال: (جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبي «صلى الله عليه وآله» فقالت: يا رسول الله إن عثمان يصوم النهار ويقوم الليل فخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» مغضبا يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلي، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال له: يا عثمان لم



يرسلني الله «تعالى» بالرهبانية ولكن بعثني بالحنيفة السهلة السمحة، أصوم واصلي وأمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح^(١).

ولنلاحظ أيضاً ما في الرواية التالية كيف أن الإنسان قد يصطنع عادةً ما، ثم تتحول هذه العادة إلى عبء عليه أو على الآخرين. عن حسين بن أبي العلاء قال: (خرجنا إلى مكة نيفاً وعشرين رجلاً، فكنت أذبح لهم في كل منزل شاة) أي من ماله الخاص (فلما أردت أن أدخل على أبي عبد الله «عليه السلام» قال: يا حسين، وتُذِلُّ المؤمنين؟ قلت: أعود بالله من ذلك. فقال: بلغني أنك كنت تذبح لهم في كل منزل شاة. فقلت: ما أردت إلا الله. قال: أما علمت أن منهم مَنْ يُحِبُّ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ فِعَالِكَ فَلَا يَبْلُغُ مَقْدَرَتَهُ، فَتَقَاصِرُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ؟) تتضاءل وتتصاغر (قلت: أستغفر الله، ولا أعود)^(٢).

ففي قوافل السفر في ذلك الزمان، ولا سيما في الحج،

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٤٩٤.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤١٥.

كانت البساطة هي الصفة الغالبة في المأكل والمسكن وغير ذلك، وكان رفقاء السفر من مستويات اجتماعية واقتصادية مختلفة، منهم الثري ومتوسط الحال والفقير، ونية هذا الرجل كانت حسنة، وأراد أن يُكرم صحبة السفر بذبح شاة كلَّ يوم وإطعامهم من لحمها، ولكنه في ذات الوقت كان يُخرجهم بهذا التصرف ويشعرون بالنقص لعدم قدرتهم على مجاراته والعمل بمثله، ولربما يدفع بعضهم تحت ضغط الإحراج إلى أن يستدين، أو يؤجر نفسه، كي لا يظهر بصورة البخيل أو الفقير، ولربما تحوّل هذا العمل إلى سُنّة وعادة ومن التقاليد وأصبح بعد ذلك ثقلاً ووبالاً على كثيرين. من هنا انزعج الإمام «عليه السلام» من تكرار هذا الفعل من الحسين ونبهه إلى خطئه.

بعض الأمور التي يأتي بها الإنسان ليست من المحرمات، ولكنها تُتعبه في حياته وتوقعه في الحرج، أو تُتعب الآخرين وتوقعهم في الحرج. وقد قال «سبحانه»: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١). ولو وجّهنا أنظارنا إلى

سلوكياتنا الاجتماعية المرهقة، والتي تحوّلت إلى عادات وتقاليد فيها الكثير من المظاهر، والتفاصيل، والإنفاق غير المبرّر، والتنافس، وتراكم الالتزامات غير الضرورية، والوقوع في محاذير الإسراف، وانتفاء الإخلاص والتقرب لوجه الله، لوجدناها في كثير من الأحيان منطبقة على ما جاء في الخبر السابق.

حين يتحوّل العمل الحسن البسيط وبنية صالحة إلى التزام شخصي واجتماعي يفوق طاقة الفرد، ويوقع الآخرين في حرج الالتزام بما تحوّل إلى عادة من العادات التي يصعب تجاوزها، أو يشعر معها الفرد بالمهانة، أو يتّهم التارك لها بالبخل أو الفقر أو التمرد.

ومن هذا القبيل التشريعات المبتدعة التي أعطيت عنواناً عاماً في سورة يونس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١)، وعرضتها سورة الأنعام في قوله «تعالى»: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بَرَعِمِهِمْ

(١) سورة يونس: ٥٩.



وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا ...، وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكُورِ وَ مُحَرَّمٌ عَلَى الْأَوَّاجِنَا ﴿١﴾، بل بلغ الأمر إلى حدٍّ أن يتم تشريع تقديم الأولاد كقرايين للآلهة: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ...﴾ (١).

وهذا يطرح تساؤلاً عما يُقدم عليه البعض في يوم العاشر من تطهير أطفاله الرضع والصغار وتعريضهم للموت أو الإصابة البليغة فضلاً عن حتمية الجرح، تحت ذات الشعار، وهو تقديم القربان، وأن يُقدم الإنسان على مثل ذلك بحق أغلى ما يملك ومن دون غاية حقيقية إنما يأتي أحياناً لوجود هذا الخلل في تصور العلاقة بين الشريعة والإنسان وأيهما في خدمة الآخر. ومن السداجة بمكان أن يتم تشبيه هذا الفعل بما أقدم عليه سيد الشهداء «عليه السلام» وما وقع لأولاده، ومن بينهم الطفل الرضيع، فذلك كان في إطار التدافع والصراع بين الحق والباطل، وهذا الفعل الصادر بتطهير الأطفال لا شأن له بذلك مطلقاً.

(١) سورة الأنعام: ١٣٥-١٣٧.

• اليسر في التكليف:

هذه قيمة أخرى توضح المسألة وترسخ حقيقة أن الشريعة في خدمة الإنسان. فمن جهة نفس التكليف تتصف باليسر وأنها ضمن قدرات الإنسان الطبيعي ، ومن جهة أخرى فإن القدرة حد في التكليف يقف عنده، فإذا انتفت القدرة توقف التكليف وتوقفت معها المسؤولية والمحاسبة. ولذا قال «سبحانه»: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١)، أي حتى عندما تجاهد، سواء على مستوى جهاد النفس أو جهاد العدو، ومن طبيعة ذلك التعب وتحميل الإنسان مسئولية صعبة، كل ذلك يأتي تشريعه في حدود قدرة الإنسان، ومتى ما انتفت القدرة كان الفرد معذوراً: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) سورة التوبة: ٩١.

وتتأكد المسألة في الآية التالية: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

وهذا واضح في تشريع الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢). وكذلك في الصيام: ﴿... فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾^(٣).

وذكرها في هذه الموارد لما في الحج والجهاد والصيام من جهد متميز، وإلا فإن القاعدة سارية في الكل. ولو كان الإنسان في خدمة الشريعة لما وجدنا كل هذه الاستثناءات والتأكيد على رفع الحرج والعسر في التكاليف.

(١) سورة الفتح: ١٦-١٧.

(٢) سورة آل عمران: ٩٧.

(٣) سورة البقرة: ١٨٥.

ولأن القدرة شرط في التكليف أخذ الفقهاء بقاعدة (لا حرج)، والخرج هو صعوبة التحمل، قد تكون نفسية أو نفسية وجسدية، ولربما لا يترتب ضرر ما، بل مجرد الصعوبة غير العادية. عندما تصوم هناك صعوبة، هناك عطش وجوع وضعف في النشاط وقوى البدن، وهذا مطلوب ما دام في الحد المعتاد، ولكن متى ما تجاوز الأمر هذا الحد أبيع الإفطار. ولذا عندنا عنوان ذو العطاش والمريض والشيخ والشيخ والحامل والمسافر. وقاعدة (لا حرج) قاعدة تحكم على أدلة الأحكام، فترفع أي حكم حرجي من دون حاجة إلى نص خاص يرفعه.

وبرأيي أنه كلما وجدنا في فتاوى الفقهاء موارد تتعارض مع هذه القاعدة القرآنية، فإنها تشريع بشري وليس تشريعاً إلهياً، هي أخطاء في عملية الاستنباط، أو في القواعد والأصول المعتمدة لدى الفقيه، أو فهمه للنص، أو في منهج الاستنباط نفسه، وإلا ناقضنا أنفسنا بأنفسنا.

ولأن القدرة شرط في التكليف أخذ الفقهاء أيضاً بقاعدة (لا ضرر)، وقاعدة (لا ضرر) هي قاعدة عامة تحكم على

أدلة الأحكام كلها فتحصرها في غير حالة الضرر، أما إذا استلزم الضرر (البعض يؤكد على البليغ منه والبعض على النوعي منه) فإن التشريع يتوقف حينها ولا يُحاسب الإنسان عليها. وهذا كله يبيّن أن الواقعية (لا المثالية) هي سمة التشريعات الإسلامية، وأن الشريعة جاءت لتقدم للإنسان ما يمكن من خلاله أن ينظم حياته وعلاقاته، وأن يحقق الغاية من وجوده، وأن يمهد للنشأة الآخرة في سر، وبما يتناسب مع فطرته واحتياجاته الجسدية والروحية، وبالتالي تكون الشريعة في خدمة الإنسان.

• أمثلة تؤكد المطلب:

ومما يؤكد حقيقة أن الله «سبحانه» إنما جعل الشريعة لتخدم مصالح الإنسان النماذج التالية من التشريعات المرتبطة بمواجهة الإنسان لبعض الأوضاع الحياتية الخاصة، وذلك من قبيل:

(١) رد الاعتداء بمثله، قال «سبحانه» في مدح المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ، وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا



فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

فَاللَّهُ يترك القرار للمظلوم، وليقدّر المظلوم الموقف بنفسه، بدراسة الأوضاع المحيطة به، والنتائج المترتبة على القرار، وبمراعاة مشاعره ومشاعر المرتبطين بالقضية، وفي النهاية فإن لكل موقف قيمته عند الله، سواء اختار المظلوم الانتصار لنفسه أم العفو.

ففي التشريع الاسلامي يكون السلوك الفردي للإنسان نفسه هو الذي يرفعه أو يحطّه أمام الله وأمام الآخرين، والمسؤولية والمحاسبة والعقوبة تخصه ولا تنتشر الى أسرته وأقربائه وعشيرته، قال «سبحانه»: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٢).

وعلى هذا فليس من المشروع ما يجري ضمن الأعراف العشائرية في بعض المجتمعات الاسلامية من استتباع جريرة الرجل بالحكم على بعض بناته أو أخواته بما يسمى بـ(الفصل العيني) حيث تُزوّج المرأة قسراً من أحد أقرباء

(١) سورة الشورى: ٣٩-٤٠.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.

المجني عليه، بل أحياناً عندما تكون الفتاة صغيرة يتم حجزها وتزويجها لذلك الشخص عندما تكبر، وكثيراً ما تُعامل الفصلية بعد الزواج على أنها كائن منبوذ ويتم استحقارها من قبل الزوج وأهله.

وقد تمتد آثار تلك الجريمة بحيث يتم نبذ أسرة الجاني بأكملها اجتماعياً وأمثال ذلك من الاجراءات التي توسّع دائرة المسؤولية لتشمل من لا علاقة لهم بها.

(٢) علاقة المسلم بغيره: فقد راعت الشريعة الاسلامية التنوع العقائدي الحاصل في المجتمعات الانسانية، ولذا كان من الحساسية بمكان معالجة قضية العلاقات الانسانية في المجتمع الواحد بما يعود بالنفع على الإنسان الملتزم بالشرع، وبما يحقق السلم الأهلي والأمن الاجتماعي.

ولذا أبقت الشريعة الاسلامية العلاقة العامة بينهم في الإطار الانساني ما دام أن الآخر المختلف عقائدياً لم يعلن الحرب، واعتبرت بالتالي أن كل صور الخيانة والغش والخداع والمكر والنفاق ممنوعة.. أما اذا رفع لواء العداة والمحاربة فان العلاقة ستحكمها معايير أخرى.



قال «سبحانه»: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ أَخْرَاجِكُمْ أَن تُلَّوَّهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

٣) طبيعة العلاقة بالعبادة: فلم تُرد لنا الشريعة أن نستغرق في العبادة وننسى ما يحيط بنا من واقع، أو نرهق أنفسنا بها إلى الحد الذي تتحول فيه العبادة إلى شئ غير مقبول نفسياً، أو بحيث نوحى للآخرين بصعوبة الانتماء لهذا الدين الذي يقهر الانسان في جو عبادي ويغلق عليه منافذ الحياة الأخرى.

ففي رواية عن النبي «صلى الله عليه وآله» لعلي «عليه السلام»: (يا علي، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، إن المُنبت) يعني المُضطر الذي يقسو على دابته في المسير (لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هَرِمًا، واحذر حذر من



يتخوف أن يموت غداً^(١). وعن علي: (إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي)^(٢). وفي حديث عن الصادق «عليه السلام»: (مرّ بي أبي بالطواف وأنا حدث وقد اجتهدت في العبادة فرآني وأنا أتصاب عرقاً فقال لي: يا جعفر يا بني، إن الله إذا أحب عبداً أدخله الجنة ورضي عنه باليسير)^(٣).

• نتائج عملية:

وعلى ما سبق، يمكن أن تترتب عدة نتائج عملية:

١. لا ينظر الإنسان إلى الشريعة نظرة سلبية وكأنها جاءت لتعقيد حياته، ولتزرع طريقه بالألغام، ولتقيّد حركته بصورة تمنعه من الانطلاق في هذه الحياة برحابتها.

٢. لا يعيش الإنسان حالة الاحتياط والقلق الدائم من الحكم الشرعي بالصورة التي يعقّد معها حياته، مع وجود الفتاوى التي تقدم له الحكم الشرعي المبرئ للذمة.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢١٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٦١.

(٣) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٨٦.

والطريف أن البعض يستهجن فتوى الفقيه حين يكون فيها شئ من التيسير إذا خالف فيها المشهور مثلاً، وإن كانت أدلته محكمة، ثم بأنفسهم يشكون من صعوبة فتوى المشهور.

٣. وبتصوري أن الفقيه أيضاً قد تتأثر فتاواه لو بنى أساس عمله الاستنباطي على هذه القاعدة.. فلو افترضنا وجود فقيه احتياطاته كثيرة قد تفوق فتاواه، فإنه سيعيد النظر في استنباطاته، بل قد يعيد النظر في مرجعيته لو طرح نفسه للمرجعية، لأن احتياطاته ستخالف تلك القاعدة.

• حكمة التدافع:

ويبقى السؤال: إذا كانت الشريعة في خدمة الإنسان، فلماذا يُطلب من الإنسان أن يدافع عنها، الدفاع الذي قد يصل إلى حد الدخول في صراع مسلح، وقد ينجم عنه موته؟ وإذا كانت تعتبر قتيلاً في سبيل الله وله الجنة والمكانة العظيمة والحياة البرزخية التي ينعم فيها.

والجواب عن ذلك أن هذا يأتي في إطار سنة التدافع، وهي من سنن الحياة، وعبرت عنها الآية الشريفة: ﴿الَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿١﴾.

فالعلاقة مع الشريعة لا تفرض علينا قتال الآخرين
بدءً، بل أن ندافع عن أنفسنا فيما لو اعتدي علينا: ﴿وَقَاتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢)، تماماً كما تدافع عن نفسك أو أهلك أو بيتك
أو وطنك عندما يستهدفك المعتدي أو الغازي.

• التدافع في نهضة الحسين:

وفي مثل هذه المواقف تكون التضحية مطلوبة حتى لو
وصل الأمر إلى أن يموت الإنسان في هذا الطريق أو أن يقدم
أولاده، وهذا ما نفهمه من استقرار المواقف التالية في
نهضة الإمام الحسين «عليه السلام».

من ذلك ما جاء في وصيته لابن الحنفية عندما اتخذ

(١) سورة الحج: ٤٠.

(٢) سورة البقرة: ١٩.

قرار الخروج من المدينة: (وأنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين، وهذه وصيتي يا أخي إليك وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)^(١).

وقوله حين واجه القوة العسكرية بقيادة الحر الرياحي وهو في الطريق إلى الكوفة: (وتقدم الحر بين يديه في ألف فارس يستقبل بهم حسيناً، فلم يزل الحر مواقفاً للحسين «عليه السلام» حتى حضرت صلاة الظهر، وأمر الحسين الحجاج بن مسرور أن يؤذن، فلما حضرت الإقامة خرج الحسين «عليه السلام» في إزار ورداء ونعلين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنى لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم: أن أقدم علينا فإنه ليس لنا

(١) العسكري: معالم المدرستين، ج ٣، ص ٥٠.

إمام، لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق، فإن كنتم على ذلك فقد جئكم فاعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم^(١).

ثم في يوم العاشر عندما انسدت كل الآفاق لأية حلول أو مخارج سوى أن يسلم الحسين نفسه ويبيع ابن زياد ويزيد، أثر «عليه السلام» المواجهة والتضحية والموت دفاعاً عن المبادئ التي آمن بها والقيم التي تمسك بها: (ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيئات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك، ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام، على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسيرة على قلة العدد وخذلان الناصر)^(٢).

وتقدّم الحسين «عليه السلام» مع قلة العدد وخذلان الناصر، وقدم الشهداء بين يديه، وسقط الواحد تلو الواحد،

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٢) ابن طاوس: الملهوف في قتلى الطفوف، ص ٥٩.

وهو يُدرك أن لا محيص من أن يكون مسكٌ ختام تلك القافلة هو بنفسه، ولكن لم تُغيّر تلك القناعة شيئاً من الموقف، بل زادته إصراراً وعزيمة على المضي في هذا الطريق الذي سيجتمع في نهايته بجده رسول الله، وبأمه فاطمة، وبأبيه علي، وبأخيه الحسن، وقد أدّى الأمانة التي أوّتمن عليها، أمانة الرسالة التي لم يتنازل عنها وحافظ عليها بدمه وبدم أعزّ الناس إليه، فكانت تضحياته تلك قبلة الحياة التي بثّت الروح في الأمة من جديد، وأخرجتها من غيبوبتها التي طال أمدها حتى كاد الأمل أن يكون مفقوداً في عودتها إلى الحياة مرة أخرى.

المنهج العقلاني الوسطي

الأزمة العالمية المرتبطة بجائحة كورونا ألقت بظلالها الكبيرة جبراً على مناحي الحياة المختلفة، سياسياً واقتصادياً وصحياً واجتماعياً، ولما استحكمت الجائحة وتمكّنت في الأسابيع الأولى تحدث أصحاب كل اختصاص

عن تأثيرات هذه الأزمة في المجال الذي يعنيهم، وبما يتناسب مع مرحلة ما بعد كورونا.

أصحاب الاختصاص في الدين أيضاً مطالبون بفتح ملفات مختلفة كشفت جائحة كورونا عن وجود الحاجة إلى معالجتها بطريقة مختلفة، أو إلى إعادة إنتاجها بصورة أفضل، وذلك بعد ظهور مواطن خلل فكري وتشريعي وسلوكي وأخلاقي برزت في الأوساط المتدينة - أو الملتزمة بدرجة ما بالدين - أو ظهور أسئلة تبحث عن إجابات دينية شافية أو مقنعة، ولم تجدها ضمن ما عُرض خلال الأزمة من معالجات فكرية أو تشريعية.

• مظاهر غريبة:

وكلنا نتذكر أنه في بدايات بروز الأزمة العالمية ظهرت فئة في الأوساط المتدينة اليهودية والمسيحية والإسلامية، وهذه الفئة تتضمن رجال دين، تطالب - بل وتعمل - بقوة على ترسيخ فكرة أن هذا الفيروس لا مجال له أن يقتحم عالم الدين... لا مجال له أن يقتحم المسجد الحرام أو المقامات الدينية أو المساجد ويلوثها... وقالوا: إذا كان

الإنسان يلجأ إلى الله أو إلى هذه المقامات أو الشخصيات المقدسة طلباً للشفاء من الأمراض، فكيف لنا أن نتصور أن بيتاً من بيوت الله أو مقاماً مقدساً يكون سبباً للعدوى بالمرض؟

وبعبارة أخرى، لا مجال لهذا الفيروس أن يكون معدياً أو مميتاً ما دام الإنسان مرتبطاً إيمانياً بالدين الفلاني، أو بالمذهب الفلاني، أو لاجئاً إلى الشخصية المقدسة الفلانية وطالبا للشفاعة منها، وما أشبه ذلك من أقاويل.

وانعكس هذا على سلوكيات ومقولات بعضهم كما شاهدنا.. فبعض متديني اليهود أصروا على مدى أشهر على كسر منع التجول والتلاقي في معابدهم بكثافة... وهكذا فعل أتباع بعض الكنائس المسيحية.

وبعض المسلمين فعلوا ذات الشيء في المساجد، وطالبوا بعدم منعهم من صلاة الجماعة، واحتجوا على إغلاق المطاف حول الكعبة، وبعضهم لعق الأضرحة، وهناك من اقتحموا بعض المقامات الدينية بالقوة احتجاجاً على إغلاقها الوقائي، وتجمهر مائة ألف مشيع لجنازة عالم دين

في إحدى الدول الإسلامية دون مراعاة لأي إجراء وقائي في مثل هذا الموقع المكتظ بالناس. كما سَفَّه بعض رجال الدين أقرانهم لاتخاذ إجراءات احترازية بإيقاف دروسهم اليومية، واعتبروا ذلك نقصاً في إيمانهم وتوكلهم وتقواهم، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، فلماذا يخاف العدوى؟

• أَدْفَعِ الْأَسْئَلَةَ:

وهكذا برزت أسئلة حول:

١. القضاء والقدر الإلهيين، وعلاقة ذلك بالدعاء والحاجة إليه لكشف البلاء مادام الأمر مقدراً سلفاً. وهل نستسلم للقدر الإلهي أم نقاومه؟

٢. علة وجود الشرور الطبيعية كالأوبئة والفيضانات والزلازل والبراكين وما أشبه ذلك، وعن تعطيل الدور الإلهي في دفع ذلك عن الأبرياء ممن لم يشاركوا في خطايا المجتمع، والأطفال والمعاقين والعجزة وكبار السن.

٣. كيفية معالجة مسألة الصيام فقهيّاً في ظل هذه الجائحة التي تتطلب قوة مناعة وتناول كميات كبيرة من

الماء وغير ذلك من الإجراءات التي بدا للبعض أنها تتعارض مع الصيام لاسيما في الأجواء الحارة وفي ظل العمل خلال النهار. وما صاحب ذلك من نقاشات فقهية وطبية اتسمت أحيانا بالعاطفية والشعارية، وأحيانا بعدم الارتكاز على أسس علمية.

٤. هل الوباء عقوبة إلهية أم رحمة؟ هل هو نتيجة لشيوخ الموبقات، فلماذا إذاً لم يميز بين الأخيار كالصحابة وغيرهم، وبين المسلمين وغيرهم؟ ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقع طاعون عَمَواس (١٧ أو ١٨ هـ) الذي حصد الكثير من الأرواح (نحو ٢٥-٣٠ ألفاً)، من بينهم الصحابيَّان معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح.

٥. هل هو فعل إلهي غيبي أم فيروس معلوم الأسباب والتفاصيل؟ قال ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) في كتابه (بذل الماعون في فضل الطاعون) إلى أن الطاعون وفقاً لبعض الأحاديث (من وخز أعدائكم من الجن)^(١) وأن هذا

(١) والحديث في مسند أحمد (٤ / ٣٩٥، ٤١٣، ٤١٧) وكذا الطبراني في المعجم الصغير، ص ٧١، والحاكم أيضاً في المستدرک على الصحيح، ج ١، ص ٥٠ من طرق عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً



مما لا يوقف عليه بالتجربة والمشاهدة بل بالوحي.

٦. هل يختلف تقييمنا للوباء بحسب معتقد الشخص الذي يُصاب به، فهو رحمة واختبار للمؤمن، وعذاب على غيره، أم أن الحكم فيه واحد في جميع البشر؟

٧. هل يمكن اللجوء إلى النصوص الدينية في التعامل مع الأوبئة؟ فقد اعتمد البعض على رواية (لا عدوى)^(١)، ليرجّح نفي وقوع العدوى بين الناس عموماً، كما فعل شهاب الدين بن أبي حَجَلَة (ت ٧٧٦هـ) وابن حجر في رسالتيهما عن الطاعون، وبعضهم أثبت العدوى كما فعل ابن خاتمة ولسان الدين بن الخطيب في رسالتيهما عن الطاعون.

بلفظ: (الطاعون وخز أعدائكم من الجن).

(١) في صحيح مسلم برقم ٢٢٢٠: (عن أبي هريرة حين قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة. فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها؟ قال: فمن أعدى الأول؟». وحدثنني محمد بن حاتم أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن وغيره أن أبا هريرة قال: إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة»، فقال أعرابي: يا رسول الله» بمثل حديث (يونس).



أم يجب علينا أن لا نُقحم النصوص الدينية في بيان تكليف الناس في مثل هذه الأمور، فهذه مسألة صحية طبية فما علاقة الروايات بها؟ كيف نتعامل مع المروي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (الفرارُ من الطاعون كالفرار من الزحف) أي أنه من الذنوب الكبيرة، كما أن الفرار في الحرب كذلك. وما هو الموقف الشرعي من ذلك؟

وقد تحوَّلت بعض هذه الأسئلة وبعض الإجابات والأفكار المعروضة إلى سبب لتندّر البعض وطعنهم في الدين أو المتدينين، والدفع باتجاه ترويج الأفكار الإلحادية أو اللادينية.

بعض هذه المقولات والسلوكيات قد تبدو سطحية وعفوية، ولكنها تكشف أحياناً عن وجود خلل فكري عميق أو وجود صورة ضبابية مرتبطة بفهم علاقة ودور الدين بالحياة، وكيفية جريان النظام الكوني، وعن دور المعاجز والكرامات في حركة الوجود، وعن علاقة عالم الغيب بعالم الشهود، وعن علاقة عملية الاستنباط الفقهي بالمعطيات العلمية.



كل هذا يفرض بالضرورة على أصحاب الاختصاص في المسائل الدينية - من فقهاء ومفكرين ومثقفين - التداعي لحصر ومناقشة التداعيات الفكرية والتشريعية والأخلاقية لأزمة جائحة كورونا المستجد والخروج بتصورات وإجابات وقواعد لمعالجة المسائل، ولربما بالتعاون مع أصحاب بعض الاختصاصات العلمية حيثما استدعى الأمر ذلك.

• ترسيخ المنهج:

وبتصوري أن هناك مجموعة من الخطوات التي يجب اتخاذها في هذا الإطار، وأهم هذه الخطوات ترسيخ **المنهج العقلاني الوسطي** في التعامل مع المسائل الدينية من دون مجاملة ولا محاباة، ومن خلال منهج رصين وأسس واضحة.

وأعني بالوسطي:

أولاً: عدم المبالغة في هذا المنهج بحيث يُلغي الغيبيات وما قدّمه الوحي من معطيات تاريخية أو مستقبلية أو فيما له علاقة بالبعد الغيبي في الوجود كالملائكة والجن والآخرة والجنة والنار.



ولابد أن نضرب هنا ما بين إلغاء هذه العناوين وبين إعادة قراءتها وإنتاجها، ومثال ذلك مسألة تجديد قراءة مَنْ هو آدم وفق المعطيات العلمية التجريبية والمخبرية والمعتمدة اليوم بشكل كبير على المعطيات الجينية، وبين آدم وفق تصورات قدماء مفسري القرآن الكريم والمؤرخين المسلمين.

وهكذا عندما نتحدث عن إعادة قراءة حقيقة الجن في زمن تبحث فيه مؤسسات فضائية عن حياة أو عن موجودات عاقلة في مجرتنا أو في مجرات أخرى، ولربما تكون أكثر تقدماً وتطوراً من الإنسان، وعن امتلاكها لوسائل اتصال بالإنسان بحيث لا ندرك إلى هذا اليوم كيفيته.

فما المانع أن نعيد قراءة الآية التالية وفق هذا التصور العلمي حيث يقول «تعالى»: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).



وقوله «تعالى»: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا.... وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا... وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾^(١).

وما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (لا تبيّتوا القمامة في بيوتكم وأخرجوها نهاراً، فإنها مقعد الشيطان)^(٢). بأن يكون الشيطان هنا رمز للميكروبات بأنواعها.

وعنه «صلى الله عليه وآله»: (إن هذه الحشوش) أي بيوت الخلاء (محتضرة) أي تحضرها الشياطين. والمراد منها الميكروبات (فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث)^(٣).

وعنه «صلى الله عليه وآله»: (خلّوا لحاكم، وقصّوا

(١) سورة الجن: ١-٩.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٧٥.

(٣) ابن ماجه: السنن، ج ٢٩٦.



أظافيركم؛ فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر^(١).
وعن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (لا تشربوا الماء من
ثلمة الإناء ولا من عروته، فإن الشيطان يقعد على العروة
والثلمة)^(٢). فالشيطان هنا رمز للميكروبات التي تتجمع
بكثرة في هذين الموضعين، فالأول لصعوبة تنظيفه، والثاني
لتكرار لمسها بأيدي الناس.

وعنه «عليه السلام»: (لا تؤوا التراب خلف الباب، فإنه
مأوى الشياطين)^(٣).

• بين اللغتين الأدبية والعلمية:

فليس المطلوب دائماً إلغاء هذه العناوين، بل لربما إعادة
إنتاجها بشكل لا يصطدم مع العقل أو مع المعطيات العلمية
الأكيدة، لاسيما بلحاظ أن لغة القرآن الكريم مثلاً ليست لغة
علمية بل لغة أدبية، وهناك فرق ما بين اللغة العلمية واللغة
الأدبية، أو بين الأسلوب العلمي في التعبير والكتابة والأسلوب

(١) المتقي الهندي: كنز العمال، ج ٩، ص ٣٠١، ح ٢٦١٠١.

(٢) الريشهري: موسوعة الأحاديث الطبية، ج ٢، ص ٤٧٣.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٧٧.



الأدبي.. وواحدة من أهم الفروقات بينهما التركيز على البعد العاطفي في الأسلوب الأدبي إلى جانب الحقائق والأفكار. أما في الأسلوب العلمي، فإن الأفكار والحقائق هي الأساس الأول في بنائه، وقلّما نجد الانفعال والعاطفة والمجاز فيه، لأن مدار عنايته هو الوضوح والاستقصاء للحقائق والأفكار.

وفي اللغة العلمية يتم تحاشي التكرار للأفكار وترديدها أكثر من مرة، وهو على العكس من الأسلوب الأدبي، إذ نجده يكرر المعنى الواحد ويعرضه علينا في عدة صور بيانية مختلفة، تمثل الإجلال والإعظام، ولعله في كل مرة يكرر عرض الفكرة في صور مغايرة يسبغ عليها دلالات مختلفة.

وأوضح مثال على ذلك تكرار ﴿فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١)، أو تكرار ﴿... إِلَهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ... إِلَهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ... إِلَهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).. وهكذا، بعد عرض مجموعة من نعم الله.

ثم إن اللغة الأدبية تعتمد كثيراً على المجاز، ولا يصح

(١) سورة الرحمن.

(٢) سورة النمل: ٦٠-٦٣.



أن نحاكم بعض الآيات علمياً وهي تتحدث بلغة مجازية. وقد أُلّف عدد من العلماء واللغويين كتباً في مجازات القرآن، ومن بينهم (مَعْمَر بن المثنى التيمي) (ت ٢١٠هـ) وله كتاب (مجاز القرآن) يتناول فيه المجازات بالبيان والشرح آية آية ضمن كل سورة بترتيب المصحف الشريف، وهكذا أُلّف الشريف الرضي (ت ٤١١هـ) كتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن)، ومن المعاصرين الدكتور أحمد الجبوري صاحب (موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم).

عندما يسرد أحدهم مجموعة إشكالات (ويسمّيها علمية) على قوله «تعالى»: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١) من حيث سعة السماوات والكم الهائل من الأجرام وضخامتها، أو من حيث أن السماء -بحسب تعبيره- فراغ وغازات سابحة، فكيف سيسقط الفراغ والغازات على الأرض.. هولا يلحظ أن التعبير في الآية مجازي، تماماً كما في قوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾^(٢)، فالقرية لا تُسأل بل أهلها يُسألون.

(١) سورة الحج: ٦٥.

(٢) سورة يوسف: ٨٢.



ثم إن بعض التعبيرات الواردة في القرآن يُلحَظ فيها الجانب الظاهري من الأمور لا واقعها العلمي. ولذا لا يصح -مثلاً- أن يأتي شخص ويُشكّل على قوله «تعالى»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾^(١) على اعتبار أن هذا التصوير يصحّ لو كانت الأرض مسطحة وثابتة، والشمس تتحرك من اتجاه إلى آخر كما هو التصرُّو البشري القديم، فهنا يصح أن نقول (بلغت مغرب الشمس) و (غربت الشمس في المكان الفلاني) .. أما الحقيقة العلمية فخلاف ذلك. فالآية إنما تصف الأمور كما كانت ظاهرة بالنسبة لذي القرنين، لا في واقعها العلمي.

• تجنب المبالغة:

ثانياً: المقصود من الوسطي من جهة أخرى هو عدم المبالغة في:

(أ) القراءة الحرفية الظاهرية للنصوص.

(ب) تبني النصوص غير المعصومة عن التزييف والتحريف والإضافة والنقص والخلل في العبارة والنسيان

(١) سورة الكهف: ٨٦.



والخلط، وهو شأن كل الموروث الحديثي.

(ج) تبني تفسيرات القدماء وكأنهم وحدهم الذين يمتلكون العلم في ذلك، أو بلغوا أقصى القدرات في التفسير والتأويل والتحقيقي.

(د) إضفاء هالة من القداسة على تفسيرات القدماء والتمنع أو الخوف من نقدها في المنهج والنتائج.

(هـ) اعتماد منهج التحقيق السندي فقط في تصحيح أو ردّ الأحاديث.

وأمثله أكثر من أن تُحصّر، في خصوص كروية الأرض ودورانها حول الشمس وتجسيم الذات الإلهية، ومن بينها مسألة العدوى بالأمراض كما مرّ بنا.

وكما روي عن الباقر «عليه السلام» قوله: (كونوا النمرقة الوسطى) وهي الوسادة التي يتكأ عليها الإنسان، والجمع نمارق، قال «تعالى»: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾^(١) (يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي)^(٢).

(١) سورة الغاشية: ١٦.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠١.

• نصوص كثيرة:

نتنقل الآن إلى بيان ما يؤكّد صحة المنهج العقلاني الوسطي، وضرورة حضور العقل في التعامل مع النصوص الدينية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

فبالإضافة إلى عشرات الآيات التي تطالب بالتدبر والتعقل والتفكير والتبصّر والمقارنة، والتحرّر من أسر التقليد الأعمى، والاعتماد على الدليل أو الحُجّة، لا الظن والوهم، وتقديم صور على إلغاء العقل واللاعقلانية - فضلاً عن إلغاء العاطفة والفطرة الإنسانية - في ما له علاقة بالنظرة إلى كيفية الخلق، وإدارة الوجود، ومعالجة الأمراض، ومواجهة القضايا الاجتماعية، وسيطرة الخرافات، وشدة الإيمان بالأساطير، وكلها مؤشرات على غياب العقل في الجاهلية، بالإضافة إلى كل ما سبق نجد نصوصاً حديثية تؤكد على هذا المنهج، ومن ذلك:

في الكافي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص



(الجاهل) أي خروجه من بلده لغاية نبيلة مع ما في هذا السفر من تعب وغربة وإنفاق للمال واحتمالات التعرض للخطر (ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل) هذا النبي أو الرسول (العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته، وما يضمّر النبي «صلى الله عليه وآله» في نفسه أفضل من اجتهد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الأبواب، الذين قال الله «تعالى»: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَبْوَابِ﴾ (١).

في البحار عنه «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (إنما يدرك الخير كله بالعقل، ولادين لمن لا عقل له) (٢).

مضمون هذه الكلمات يمثل واحدة من أهم معالم الرسالة الإسلامية، حيث سعى النبي «صلى الله عليه وآله» إلى أن يجعل للعقل والعقلانية مكانة بارزة في حياة من آمن برسالته.

(١) الكليني: الكافي، ج ١، ص ١٢-١٣. والآية برقم ١٩ من سورة الرعد.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٥٨.

ومثال مما له علاقة بالحدث الأبرز الذي أثار هذا الموضوع، وهو أزمة جائحة كورونا المستجد، نجد أن النبي «صلى الله عليه وآله» حارب هذا النوع من تغييب العقل عند التعامل مع القضايا المتعلقة بمتغيرات الطبيعة وعللها، وقد جاءه بعض الأعراب برؤية يغيب فيها العقل فقالوا: (يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ودواء إلا داء واحدا، قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: الهرم)^(١).

وعن هلال بن يساف قال: (دخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» على مريض يعوده فقال: أرسلوا إلى الطبيب، فقال له قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟) وكأن ارتباط النبي بالغيب، ومقامه الرفيع عند الله، وإيمانه بالقضاء والقدر، واستجابة دعائه، كل ذلك يستدعي منه عدم اللجوء إلى معالجة الأسباب الطبيعية، بل اللجوء إلى الرقية مثلاً، أو الاكتفاء بالدعاء، فجاء الجواب صادماً: (قال: نعم)^(٢).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٧٦.

(٢) ابن القيم الجوزي: الطب النبوي، ص ١٠٥.



في رواية أنه قيل لرسول الله «صلى الله عليه وآله»: (رُقِيَ يُسْتَشْفَى بها هل تردُّ من قدر الله؟)، فقال «صلى الله عليه وآله»: (إنها من قدر الله)^(١). والرقى جمع الرقية بمعنى العُوْذَة، فقد جعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» التمسك بالأسباب جزءاً من تقديره سبحانه فأعلم بذلك أن ليس التقدير سلباً للاختيار بل خيرة الإنسان وحرите في مجال الحياة من تقديره سبحانه وتعالى.

روى الأصبغ بن نباته: إن أمير المؤمنين «عليه السلام» عدل من حائط مائل إلى حائط آخر فقل له يا أمير المؤمنين أتفر من قضاء الله؟ قال «عليه السلام»: (أفر من قضاء الله إلى قدر الله «عز وجل»)^(٢).

فإن مما قدره الله «تعالى» في هذا الكون إن الحائط لو سقط على الإنسان يضره ويؤذيه، وأيضاً قد قدر الله تبارك وتعالى في هذا الكون إن الابتعاد عن الحائط المائل سبب للخلاص من ضرر الحائط، فلو كان أمير المؤمنين «عليه

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥، ص ٨٧.

(٢) الصدوق: التوحيد، ص ٣٦٩.



السلام» بقي واقفاً في مكانه وانهدم الحائط عليه معناه قد انطبق هذا القانون الكوني عليه فهو القضاء. ومن هنا نعلم أن الإنسان بإرادة منه يختار ما قدّره الله «تبارك وتعالى» في هذا الكون من سنن وقوانين.

بهذا نجح النبي «صلى الله عليه وآله» أن يُحدث نقلة نوعية لدى العربي الجاهلي البعيد عن العقلانية، وأن يفتح له من خلال ذلك آفاق العلم والفكر والحضارة المادية والمعنوية. ولكن عملت بعض الأيدي وبإيعاز من الأمويين على أن يتلاعبوا في هذه الصورة العقلانية لواحدة من أسس الإيمان عند الإنسان المسلم، ويعيدوا ذات الفكرة الجاهلية التي لا تقوم على حجة عقلية، بادّعاء أن القضاء والقدر يستلزم الجبر.

• مقاومة لمساعي الأمويين:

وقد نجح بعض العلماء آنذاك في مقاومة هذا المنهج الأموي، وظهرت عدة مدارس إسلامية اتّسمت باعتماد درجة من العقلانية، وكانت المسألة سجّالاً بين الطرفين عبر التاريخ.

عندما اعترض عبد الله بن عمر على التسويق لخلافة يزيد، ردّ عليه معاوية قائلاً: (إني أحذرك أن تشق عصي المسلمين، وتسعى في تفريق ملتهم، وأن تسفك دماءهم، وإن أمر يزيد قد كان قضاءً من القضاء، وليس للعباد خيرة من أمرهم)^(١).

وعندما اعترض عبد الله بن مطيع العدوي على عمر بن سعد قائلاً: (اخترت همدان والري على قتل ابن عمك؟) أي الحسين «عليه السلام»، قال له ابن سعد: (كانت أموراً قُضيت من السماء، وقد أعذرت إلى ابن عمي قبل الواقعة فأبى إلا ما أبى)^(٢).

وعمد الأمويون أحياناً إلى ترويج عقيدتهم الفاسدة في القضاء والقدر والوقوف بوجه الرأي الآخر بالقوة، ومثال ذلك ما جاء في كتاب الاعتصام للشاطبي عن عمرو بن مهاجر قال: (بلغ عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن غيلان يقول في القدر) غيلان بن مسلم، أصله من القبط، أسلم

(١) ابن قتيبة: الإمام والسياسة، ج ١، ص ١٧٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ١٤٨.

أبوه وكان مولى للخليفة عثمان، وولد غيلان وعاش في دمشق، وارتحل في طلب العلم فدرس على الحسن بن محمد بن الحنفية في المدينة، ودرس الفقه على الحسن البصري في البصرة. وأصبح أحد العلماء، وصار على صلة بعمر بن عبد العزيز، حيث عهد إليه ردّ مظالم مَنْ سبقه من أمراء بني أمية، فكان غيلان ينادي لبيعها للناس في المدينة ويقول: تعالوا إلى أموال الظلمة، تعالوا إلى أموال الخونة! وقد وصلت هذه الكلمات إلى مسامع هشام بن عبد الملك، الذي سيصبح خليفة فيما بعد، فقال: هذا يعينني ويعيب آبائي؟! والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه. وكان غيلان يناصر القول بأن الله أعطى للإنسان الاختيار في أعماله وأنه غير مجبر عليها (فبعث إليه فحجبه أياماً ثم أدخله عليه فقال: يا غيلان ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال عمرو بن مهاجر: فأشرت إليه أن لا تقول شيئاً، فقال: نعم يا أمير المؤمنين. إن الله «عز وجل» يقول: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا».



قال عمر: اقرأ آخر السورة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصّرتني، وأصمّاً فأسمعتني، وضالّاً فهديتني. فقال عمر: اللهم إن كان غيلان عندك صادقاً وإلا فاصلبه. قال: فأمسك عن الكلام في القدر، فولاه عمر بن عبد العزيز رحمه الله دار الضرب بدمشق. فلما مات عمر بن عبد العزيز وأفضت الخلافة إلى هشام تكلم في القدر، فبعث إليه هشام فقطع يده فمرّ به رجل والذباب على يده فقال: يا غيلان هذا قضاء وقدر. قال: كذبت لعمر الله ما هذا قضاء ولا قدر، فبعث إليه هشام فصلبه^(١).

• العنف في مواجهة الفكر:

بمثل هذا العنف واجه الأمويون من يخالفهم في العقائد الفاسدة التي روجوها، وبقيت آثارها إلى هذا اليوم، حيث نجح الخطاب الديني - وبكل اقتدار - على مدى السنوات الماضية بتحقيق حركةٍ ردّةٍ حضارية واسعة تدفع نحو العودة

(١) الآجري: الشريعة، ح ٥٢١.

إلى تغييب العقل من جديد، وبثوب إسلامي وشرعي، ومن انعكاساته الأخيرة ما جاء على لسان وفي كتابات البعض حول كيفية التعامل مع جائحة كورونا.

ومن خلال اعتماد الأمويين على العنف في مواجهة من يخالفهم ولو بالرأي، ومن خلال هذا النوع من التفكير التبريري في مسألة القضاء والقدر، سُوِّغَ للبعض ارتكاب واحدة من أكبر جرائم التاريخ عندما تجرّءوا على قتل الحسين وأهل بيته وأنصاره، وأسّر حرائر بيت النبوة وسوقهم سبايا، على اعتبار أن المسألة قد قدّرها الله عز وجل وقضاها، وأن الجميع بمثابة الريشة في مهب الريح، لا يملكون إرادة حقيقية في تغيير ما هو مكتوب.

إلا أن الأمور سارت على خلاف ما أرادوا، ففي حين أنهم تصوّروا أن قتل الحسين والثلة الطيبة معه ستُخمد جذوة الحق، وستفسح لهم المجال كي يعيثوا في الأرض فساداً كيفما شاءوا، فإذا بالدماء الزاكية تسقي شجرة الثورة على الباطل والطغيان الأموي وتزلزل عروشهم وتسلب عنهم شرعية الحكم، وشرعية الموقف، وشرعية الكلمة، وتكشف

للناس الوجه الحقيقي للحكم الأموي الذي طالما رُوج إلى أنه الوارث الشرعي للخلافة التي يجب أن تكون في قريش، فإذا بهذه الخلافة ترتكب واحدة من أكبر وأبشع جرائم التاريخ بحق سبط رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأهل بيته وأنصاره من أبرار الأمة وخيار قرائها وساداتها.



كورونا والأخلاق



واحدة من المسائل التي أثّرت في أجواء الأزمة العالمية المرتبطة بجائحة كورونا هي مسألة ارتباط القرارات الطبية والإجرائية بالأخلاق، ووقوع التعارض بين إجراءين يحتار الإنسان في اختيار أحدهما، بلحاظ أن لكلٍ من طرفي



المسألة خصوصية تُرجَّح الأخذ بها، أو لتساوي الخيارين. بل ولم تتوقف مثل هذه التعارضات في الحياة العامة في يوم ما، ولا يكاد الفرد منا إلا وعاش صورةً فاقعةً من صورها خلال حياته، ولذا فقد كانت - وما زالت - سؤالاً أخلاقياً وشرعياً وقانونياً قائماً، ويتم إدراجها تحت عنوان (آلية الحكم على الفعل الأخلاقي)، وهي ترتبط بوقوع التعارض بين أمرين متضادين، وآلية الترجيح بينهما.

• مثال القطار:

والمثال الذي يُضرب لذلك عادة وقوع التعارض بين الحفاظ على حياة مجموعة من الناس وبين قتل إنسان واحد... فماذا سيكون قرارك، وما هو العمل الأخلاقي المناسب في هذه الحالة؟

من قبيل أنك تقود قطاراً، والقطار يسير بسرعة كبيرة على سكة الحديد، وتفاجأت بوجود خمسة عمال على السكة يعملون غير منتبهين للقطار المتجه إليهم، ورأيت في نفس الوقت تفرعاً جانبياً من سكة الحديد يتجه بعيداً عن الخمسة، ولكن هناك شخص يقف على السكة ولا دخل له



في المعضلة... فماذا ستفعل وأنت لا تملك أي خيار آخر مطلقاً؟ هل ستختار أن تصطدم بالواحد أم بالخمسة؟ هل للرقم هنا أهمية؟ فلربما تكون لذلك الشخص الواحد عائلة واحدة، بينما خمسة أشخاص فتلك خمسة عائلات بالأزواج والأطفال؟ أم يعتمد القرار على تحمّل المسبّب لتبعة الأمر ونتائجه فلا تتخذ أي إجراء لتغيير مسار القطار؟

للفيلسوف السياسي مايكل سانديل Michael Sandel كتاب باسم (العدالة: ما هو الشيء الصحيح الذي يجب فعله) Justice: What's the Right Thing to Do، وضع فيه مجموعات فرضيات مطوّرة عن السؤال السابق مع عرض بعض النظريات الأخلاقية التي تجيب كلٌّ منها على الأسئلة من وجهة نظرها، وهي مهمة جداً لفهم كيف تعاملت الدول المختلفة مع التعارضات التي حصلت نتيجة الجائحة، وقد اعتمدت على ترجمة د. محمد قاسم لذلك.

قام (سانديل) بتطوير السؤال السابق الخاص بالقطار ووجهه للذين يقولون باختيار قتل الواحد بدلاً من الخمسة: تخيل أنك على جسر وكان هناك قطار يسير أسفل،

وسيصطدم بالعمال الخمسة، وأنت تراقب هذا المشهد وبجانبك شخص ثقیل الوزن، بحيث لو أنك رميت به من على الجسر أمام القطار، فسيتوقف وستنقذ الخمسة، ماذا ستفعل في هذه الحالة؟ لعل حکم غالبية نفس هذه الفئة هو عدم جواز رمي الرجل البدين، إذ لا ذنب له.

والآن ننتقل إلى مَنْ یصر إلى الآن على التضحية بالفرد في مقابل إنقاذ الخمسة لنقول له: لو أنك طبيب ولديك غرفتان، في واحدة منهما شخص سليم لا مرض فيه، وفي الغرفة الأخرى خمسة أشخاص، كل واحد منهم لديه مشكلة ستؤدي إلى موته، فهل لديك الاستعداد لتخدير الشخص السليم في الغرفة الأولى لأخذ أعضائه وزرعها في كل من الأشخاص المرضى؟ غالباً ما ستكون إجابة مَنْ تبقى من هذه الفئة هي النفي.

لماذا تتغير آراء الناس من المثال الأول من رأي يتخذ القرار في التضحية بالفرد لإنقاذ العدد الأكبر إلى القول بعدم التضحية بالفرد مع تغيّر الأمثلة؟

قد يقول البعض أن المسألة مرتبطة بطبيعة المهنة، وقد

يرى البعض أنها ترتبط بمدى حرية الضحية في الاختيار، ولكن أياً من هذه الافتراضات غير سليمة.

• التفضيل بين المرضى:

ومثل هذه التساؤلات ليست ترفاً، ولا من محض الخيال، بل هي من وحي الواقع، وقد عقدت الفصل الأخير من كتابي (أخلاق المهن الطبية وآدابها) وهو كتاب دراسي خُصص لكلية الطب في إحدى الجامعات العربية، لطرح ثمانية قضايا للنقاش بين طلبة الطب بعد الانتهاء من دراسة المادة، من بينها قضية التعارض بين زراعة كبد لمرضى (وهي مكلفة جداً ومُجهدّة) تبين قبيل العملية أنه مريض بالقلب وأن إجراءها قد يعني إهدار ذلك الكبد، وبالتالي تضييع الفرصة على مريض آخر جاء لاحقاً ولكنه لا يعاني من مشاكل صحيّة في القلب تُعرّضه للخطر. فهل سيكون القرار بالمضي في العملية الجراحية للمريض الأول متنافياً مع العدالة، وحقّ المريض الآخر في الحصول على هذا الكبد؟ وهل سيتبدّل القرار الطبي ما لو هدد المريض الأول بالانتحار في حال امتناع الطبيب عن إجراء العملية الجراحية؟

ومع الأزمة العاصفة التي حلت بالناس والدول في أجواء جائحة كورونا، والأعداد المليارية من الناس التي عانت من مشكلة واحدة في وقت متزامن، وبصورة يتم فيها تناقل الأخبار وتفاعلاتها بسرعة فائقة، مع إمكانية إجراء الحوارات المباشرة بين أتباع مختلف الثقافات والقوميات والديانات معاً، دخلت المسألة على الخط بشكل واضح وقوي وملح... فلنأخذ بعض الأمثلة على ذلك:

١ - هل يتعارض ما سُمي باستراتيجية (مناعة القطيع) مع الأخلاق؟ ففي منتصف مارس الماضي، ظهر مصطلح «مناعة القطيع» أو «المناعة بالعدوى»، وذلك بالتزامن مع دعوة رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون إلى اتباع هذه الاستراتيجية في مواجهة فيروس كورونا المستجد. وتستند هذه الاستراتيجية إلى ممارسة الحياة بشكل طبيعي، بحيث يصاب معظم أفراد المجتمع بالفيروس، وبالتالي تتعرف أجهزة المناعة على الفيروس، ومن ثم تحاربه إذا ما حاول مهاجمتها مجدداً.

المشكلة في هذه الاستراتيجية أنها ستعرض كبار



السن والمصابين بالأمراض المزمنة وأمثالهم ممن يُعدّون الحلقات الأضعف في المجتمع إلى خطر الموت بنسب كبيرة جداً، ولكن هذا سيصب في الصالح العام من خلال تحقق المناعة. فهل تُعدّ الاحتمالية الكبيرة للتضحية بهذه الفئات أمراً منافياً للأخلاق؟ أم أنها تصرف أخلاقي في صالح الأغلبية؟ أم أنها البراغمية التي يجب أن تتحلى بها المجتمعات أو الجهات صاحبة القرار في معالجة مثل هذه الأزمة الخطيرة؟

وهل نقدّم مصلحة المسنّ الذي يتقاضى راتباً تقاعدياً من الصناديق الاجتماعية ويثقل كاهل الدولة، أم مصلحة شاب في مستقبل العمر، وهو قادر على العطاء والابتكار؟

وماذا لو أن نسبة المسنين كانت - في بلد ما - كبيرة، وارتفاع معدلات الأعمار في تزايد وسط منجزات علمية وطبية هائلة، فهل من المعقول أن نضحى بالغالبية لأجل الأقلية؟

٢- ويتفرّع عن هذا ما ذهب إليه البعض من الدعوة لاستخدام هذه الاستراتيجية كحل أمثل للبلدان الفقيرة التي



يكثر فيها الشباب مثل الهند، باعتبار أنها ستؤدي إلى الحد من الانهيار الاقتصادي، ورفع معاناة قسم كبير من المجتمع الهندي بسبب الإغلاق الذي يقيّد حركتهم.

٣- عندما ازدحمت المستشفيات وقاعات العناية المركزة على وجه التحديد بالمصابين بهذا المرض، وقسم ملحوظ منهم من الحالات الميئوس منها، ومن أصحاب الأمراض المزمنة أو كبار السن، بينما ينتظر في مقابلهم الآلاف ممن يُرتجى شفاؤهم بحسب الموازين الظاهرية، ولكنهم محرومين من هذه المعالجة بسبب استمرارية علاج الحالات السابقة، فهل حرمان الفئة الأكثر توقعاً للتمائل للشفاء عمل أخلاقي؟ أم أن حرمان الفئة الأولى من ذلك هو العمل غير الأخلاقي؟

قالت صحيفة (ديلي ميل) البريطانية، إنها فكرة مرعبة، أن تتخذ قراراً بشأن من سيبقى على قيد الحياة، ومن يجب أن تتركه ليموت، ولكن هذا هو بالضبط الوضع الذي يواجهه العديد من الأطباء في إيطاليا يومياً في الوقت الحالي.

بل إن بعض المستشفيات البريطانية اتخذت قرار

التخلص من الحالات التي لا أمل في شفائها بواسطة حُقنة لإفساح المجال لمرضى آخرين، مما دفع ببعض العاملين في العناية المركزة لترك العمل بلحاظ أنهم كانوا يعملون طوال حياتهم لإنقاذ حياة الناس فإذا بهم يتحولون إلى قتلة!!.

٤- ولا يقتصر الأمر على البُعد الطبي والصحي، فعندما تم اتخاذ إجراءات احترازية أمام الأسواق المركزية الكبيرة عندنا في الكويت، ووجدت بعض إدارات هذه الأسواق أن الأولوية في الدخول للمواطنين، وعلى غيرهم الانتظار لمدة قد تطول أو تقصر بحسب نسبة المرتادين في المرة الواحدة، فهل يُعدّ هذا العمل متوافقاً مع الأخلاق بلحاظ البُعد الوطني، والمواطنون هم الأولى بالخدمات، أم عمل لا أخلاقي بلحاظ أن مثل هذا التمييز لا يقوم على أسس مقبولة.

هذه مجرد أمثلة أفرزتها الأزمة، والمسألة حساسة جداً، حتى أن الدكتور (فريدريك م. بيركلي جونيور) وهو طبيب سابق في حرب فيتنام بعد أن وضع أفكاراً حول كيفية التعامل مع ضحايا حدث إرهابي بيولوجي واسع النطاق، واقتُرحت

بعض أفكاره من قبل الأطباء الكنديين بعد تفشّي السارس في مستشفيات تورنتو عام ٢٠٠٣، كما شقّت طريقها إلى العديد من الخطط الأمريكية بعد وباء H1N1 عام ٢٠٠٩، قال هو في مقابلة أجريت معه بعد مشاهدة التطبيق العملي لأفكاره: (لقد قلتُ لزوجتي: أعتقد أنّي طوّرت وحشاً ما).

ما كان يقلقه، أن البروتوكولات لم تكن لديها - غالباً - معايير صارمة لتحديد من أحقّ بأجهزة التنفس الصناعي أو حتى دخول المستشفى، مما يعرّض فئات من الناس إلى خطر الموت بسبب الأفكار التي اقترحها هو.

والتساؤلات السابقة كما قلت لا تختلف عن تساؤلات طالما أثّرت عبر التاريخ وارتبطت بفلسفة الأخلاق، كما ارتبطت بالبعدين الشرعي والأخلاقي.

قد يقع التعارض بينه الحكم الأخلاقي والاستنباط الشرعي، ففي بلجيكا مثلاً، امتنعت مريضة مُسنّة مبتلاة بالكورونا عن أخذ العلاج عبر جهاز التنفس الصناعي الوحيد المتوفّر، عندما وجدت أن مريضاً شاباً كان بحاجة إلى ذات الجهاز، مما أدى إلى وفاتها.



هذا العمل راقي جداً بالمنظور الأخلاقي الإنساني، ويمثّل صورة من أرقى صور الإيثار، وتحوّل سلوكها هذا إلى مضرب للمثل، بينما في بعض الإنتاج الفقهي هو بمثابة تعريض النفس للهلكة، وهو أمر محرّم شرعاً.. وهذا ما يستدعي إعادة النظر عند هؤلاء الفقهاء في قواعد أو نصوص أو خطوات الاستنباط لديهم، وهو ما سنعرض له في موضوع آخر.

وفي مثال ما جرى في بريطانيا قد يعتبر بعض ما يُرتكب في بعض وحدات العناية المركّزة جريمة بنظر القانون، وسيعرّض الطواقم الطبية للمساءلة والمعاقبة القانونية والمطالبة بالتعويضات، سواء من الجهات الرسمية أو أهالي المتوفين، بينما اعتبرته بعض الطواقم الطبية متناغمة مع القواعد المهنية، أو البروتوكولات المعمول بها، أو تقديرهم لأخلاقيات المهنة.

فما هي النظريات (الأخلاقية) التي تم الاعتماد عليها في بعض الدول التي واجهت الأزمة بشدة لتحديد التصرف الأخلاقي المناسب بحسب الطرف القائم:

• النظرية النفعية:

النظرية الأولى للمدرسة النفعية Utilitarianism، ومؤسسها هو الفيلسوف الإنجليزي جيرمي بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢). وهي ترى أن الأخلاق مرتبطة بالسعادة، والسعادة تتحقق من خلال تحقق المنفعة واللذة، أو دفع الألم. هذا هو معيار الأفضلية السلوكية و(الأخلاقية). وهذا يعني أن تقييم التصرف (أخلاقياً) لا يعتمد على القيم والفضائل، بل وفقاً للنتائج، فكل عمل يقوم به الشخص لابد أن يأخذ بعين الاعتبار المنفعة واللذة والألم، فإذا كان العمل يقود للسعادة (تحقيق المنفعة واللذة/ دفع الألم) لأكبر عدد من الناس فسيكون من الصحيح القيام به، وإن كان العكس فسيكون من الخطأ القيام به.

نعم، كيفية تحديد المنفعة واللذة والألم في حد ذاتها محل نقاش وموضع اختلاف. فالسعادة أمر نسبي يختلف من فرد إلى آخر، كمّاً ونوعاً. فأحد الأفراد يعتبر أن كل اللذة والمنفعة متحققة بالعزلة، ويتألم من وجود الناس حوله، وآخر على العكس... فعلى أيهما نقيس؟



وهكذا قد نجد فرداً يعتبر أن العمل وخدمة الناس هي المنفعة وقمة اللذة (السعادة)، وآخر يعتبر أن البقاء في الفراش طويلاً والاسترخاء يمثل قمة اللذة والمنفعة (السعادة).. فعلى أيهما نقيس؟

هذه أول إشكالية تواجه النظرية.

وتذهب النظرية إلى أنه عند وقوع التعارض في الأمثلة الخاصة بجائحة كورونا، لابد من اختيار التصرف أو القرار الذي سيحقق أكبر قدر من المنفعة لأكثر عدد من الناس (الخير الأعظم لأكثر عدد)، أو الذي سيمنع أكبر قدر من الألم لأكثر عدد منهم.. هذا هو المعيار.

لنفترض أن إرهابياً جهّز قنبلة قذرة وخبّأها في مكان ما، فلو انفجرت هذه القنبلة فإن عدداً هائلاً من الناس سيموتون. قبض الأمن على الإرهابي قبل انفجار القنبلة ووضعوه في زنزانة، هل يحق لنا تعذيبه بشدة - وهو فرد واحد - لنزع الاعتراف منه حول مكان القنبلة لإنقاذ الملايين من الناس؟ المدرسة النفعية تقول نعم، وهو عمل أخلاقي. وقد لا نتردد نحن في موافقتهم على ذلك.

ويجب أن ننتبه إلى أن المدرسة النفعية لا تقبل بالتعذيب أو ترفضه بناءً على القيم، بل بمقدار ما يُحققه من نتائج.. فلو كنت أعلم سلفاً أنه لم يكن ليحقق نتيجة فهو عمل لا أخلاقي.

ولنطوّر المثال السابق بفرض أن نزع الاعتراف منه يسلمتزم تعذيب طفله الصغيرة أمام عينيه، فما هو الحكم الأخلاقي على هذا الفعل؟ تعود المدرسة النفعية لتجيبك مرة أخرى بأنه مقبول. هنا، سيتوقف كثيرون عن موافقة المدرسة النفعية حتماً، مما يكشف الخلل في هذه النظرية.

الخلل الآخر الذي يواجه هذه النظرية ما كشفته تجربة عالم الاجتماع (إدوارد ثورنديك) Edward Thorndike حين قام بتقديم مجموعة من الاختيارات لمجموعة من الناس، ووضع في مقابل كل اختيار سؤالاً حول القيمة المالية فيما لو وافق هذا الفرد على هذا الاختيار، فكانت الإجابات من قبل الذين وافقوا على ذلك كالتالي:

خلع الضرس \$٤٥٠٠ - قطع الإصبع \$٥٧,٠٠٠ - أكل دودة طولها ٦ إنشات \$١٠٠,٠٠٠ - خنق القطعة \$١٠,٠٠٠

- العزلة في مكان نائي \$٣٠٠,٠٠٠. وهذا يعني أنه تم جعل قيمة مادية لكل واحدة من موارد المنفعة أو اللذة أو الألم، أي أن السعادة يمكن تقديرها بالمال فقط، وأنه يمكن الاعتماد على القيمة المالية في تطبيق العدالة، وأن كرامة الإنسان يمكن تقديرها بالمال.

هذه النزعة المادية الصرفة في النظرية النفعية هي التي دفعت بمجموعة من المشاركين إلى رفض إعطاء قيمة لمثل هذه الأشياء... وهذا خلل آخر يواجه النظرية.

ولنلاحظ الآن كيف طبقت إحدى الشركات الكبرى لإنتاج السيارات هذه النظرية في اتخاذ القرار (الأخلاقي). فعندما اكتشفت الشركة وجود خلل مصنعي خطير في إحدى سياراتها، وبسبب ذلك توفي أكثر من ٥٠٠ شخص عدا عن المصابين، قامت الشركة بعملية حسابية تقارن فيها بين سحب منتجها من السوق وبين دفع التعويضات للمتضررين، فوجدت أن الأوفر لها (المنفعة = السعادة) هو إبقاء الوضع على ما هو عليه. وقد تعاملت بعض الجهات الطبية والرسمية والمسئولة خلال أزمة كورونا وفقاً لهذه النظرية.

ومن الإشكالات التي تواجهها هذه النظرية أن السعادة -من وجهة نظرها- لا تتعلق بفرد فرد، بل بالمجموع أو بالقدر الأكبر من الناس، وهي قد تتأثر بالإعلام والإشاعات والظروف الضاغطة، فكيف يمكن تقييم ذلك؟ كما أن إعطاء الأولوية لتنفيذ الجماعة يسلب حق الفرد أو الأقلية.

• النظرية الليبرتارية:

النظرية الليبرتارية أو التحررية libertarianism وهي نسخة مطوّرة عن المدرسة النفعية، وصاحبها الفيلسوف (جون ستيوارت ميل) John Stuart Mill. هذه النظرية ترى أن:

١. الإنسان حُر في أي تصرف يشاء أن يقوم به طالما أنه لا يضر بالآخرين.

٢. لا يحق للجهات الرسمية التدخل في اختياراته ولو كانت مضرّة بالنسبة إليه أو مؤدية إلى الموت طالما أنه لا يضر بذلك أحداً.

٣. من خلال ذلك ستتحقق للفرد (السعادة) المتمثلة



في تحقيق اللذة أو المنفعة أو دفع الألم، وستتحقق للناس أيضاً (كمجموع) أكبر قدر من السعادة وعلى المدى الطويل. من هنا ستكون مواجهة إشكالية التعارض في مثل أزمة كورونا هو بقبول القرار الشخصي للفرد، أيًا كان هذا القرار ما دام أنه لا يضر بالآخرين، لأن المنفعة أو اللذة أو دفع الألم (السعادة) إنما تتحقق بذلك فقط.

وهذه النظرية بالإضافة إلى بعض الإشكالات السابقة الموجهة إلى النظرية النفعية، تواجه إشكالات أخرى في تحديد مفهوم الإضرار وطبيعته ومداه، فهل مرض الأفراد وعدم قدرتهم الإنتاج وتحولهم إلى حالة ضرر أم لا؟ هل يُجبر المريض على العلاج أم لا؟ هل النسبة المعينة في احتمالية العدوى تعتبر ضرراً أم لا؟ وحالات التصادم بين الاختيارات الشخصية والمنفعة العامة كثيرة جداً، فهل تدخل في حسابات الإضرار وتقييد الحرية؟

• نظرية الأخلاق الواجبة:

نظرية الأخلاق الواجبة Deontological ethics
deon بمعنى (التزام وواجب) و logy /logia بمعنى

(علم)، وهي متفرعة عن نظرية (إيمانويل كانط) Immanuel Kant في الأخلاق، وتشارك معها في ضرورة وضع معايير وقواعد يتم الاتفاق عليها، ومن ثمَّ يُمكن الحكم بخصوص مدى أخلاقية أي فعل صادر، بحسب درجة الالتزام بتلك القواعد والمعايير، مع إبعاد أي تأثير للنوازع الشخصية في الحكم على الفعل.

وقامت فرانسيس كام (Frances Kamm) بتطوير هذه النظرية وقالت بمبدأ (الضرر المسموح به)، حيث يجوز إلحاق الضرر بشخص من أجل إنقاذ آخرين عددهم أكثر، وذلك إذا اقتضى الصالح العام ذلك. ولذا ففي مثال القطار يجوز أخلاقياً تحويل مساره لقتل الفرد.

أما أن نقتل شخصاً من أجل أن نأخذ أعضاءه لعلاج خمسة مرضى، فهذا -مبدئياً- لا يجوز، إلا إذا كانت هناك مصلحة عامة تترتب على هذا العمل، وفق المعايير الموضوعية سلفاً، كأن يكون أحد المرضى عالم فيزيائي كبير، ومثل هذا ينطبق على المثال الثاني لحادث القطار.

وفي عام ٢٠٠٧، نشرت (كام) كتابها وأطلقت من خلاله

عنوان (مذهب الطهارة الإنتاجية) الذي يحدّد الظروف التي يُسمَح فيها للناس بالتصرف بطريقة تضرّ الآخرين.

• تطبيق عملي:

ولذا فإن الاتجاه الغربي في معالجة مشكلة مفاضلة العلاج في ظل جائحة كورونا انقسم إلى اتجاهين رئيسين، وإن اختلفت طرق وأساليب التنفيذ، اتجاه (النفعية) و(الأخلاق الواجبة). مثال ذلك ما قام به الباحثون في جامعة (جونز هوبكنز) حيث صمّموا نموذجاً يُعطي (درجات) للمرضى استناداً إلى:

١. الاحتمال التقديري للبقاء على المدى القصير والطويل.
٢. يحدّد البقاء بما إذا كان متوسط العمر المتوقع للفرد في السابق لا يقلُّ عن سنة بعد الشفاء.
٣. يتم توفير أجهزة التنفس الصناعي حسب توفرها ووفقاً لتصنيف المرضى.
٤. يوصى بإجراء قرعة على الموارد المنقذة للحياة عندما يكون لدى المرضى نفس الدرجة.

٥. يمكن أيضاً استخدام المرحلة العمرية باعتبارها الفيصل في حالة التكافؤ.

٦. يتعيّن اتخاذ القرارات من قبل ضباط الفرز المعيّنين، وليس الأطباء الأفراد الذين يقومون على رعاية المرضى.

أو في ولاية كولورادو، حيث عمل الدكتور (ماثيو وينا)، طبيب أخلاقيات البيولوجيا والأمراض المعدية، على خطة من شأنها إعطاء درجات للمرضى، والاعتبارات الأولى هي احتمالات البقاء على قيد الحياة وطول الفترة المتوقعة للعلاج، مع اعتماد طرح الأمر على المريض قبل دخوله المستشفى، معتبراً أن أكثر الطرق أخلاقية لاتخاذ القرار هي أن تسأل المريض. وإذا كانت الأمور تزداد سوءاً، يُنقل الجهاز إلى مريض آخر، فلا يعني كونك على جهاز تنفس صناعي أنك تملكه، بغض النظر عن عدد الناس الذين يجب أن يموتوا في هذه الأثناء. هذا الأسلوب من المعالجة يلتقي مع نظرية الأخلاق الواجبة، بينما تتناغم طريقة (مناعة القطيع) مثلاً في مواجهة الجائحة أو ما جرى في بعض المستشفيات البريطانية مع النظرية النفعية.



• الرؤية الإسلامية:

في خضم هذه النظريات المختلفة، هل هناك شيء في الإسلام يمكنه أن يحدد مدى أخلاقية العمل من عدمه؟

قد يبادر الإنسان الملتزم دينياً ليقول: إذا كانت جهود النبي «صلى الله عليه وآله» في رسالته قد تركزت على أربعة قضايا يبينها الآية التالية حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١)، أي القرآن - الأخلاق - التشريعات - الحكمة، فمن البديهي أن نمتلك نحن كمسلمين حلاً لهذه الإشكالية الأخلاقية الكبيرة... ولكن السؤال: ما هو هذا الحل؟ وهل يمكن الخروج برأي أو اجتهاد إسلامي واحد في مثل هذه المسألة ومن خلال قراءة شرعية وأخلاقية لجوانبها المختلفة؟

• موقف مسلم:

لا أعتقد أن المسألة بهذه السهولة، وأدّل دليل على ذلك

(١) سورة الجمعة: ٢.

انقسام آرائنا حول ما وري من موقف مسلم بن عقيل حين صار في دار هانيء بن عروة، وقد جاء عبيد الله بن زياد لزيارته، فامتنع مسلم عن اغتياله.

ففي كتاب الأخبار الطوال للدينوري ومصادر أخرى بشيء من الاختلاف في الألفاظ والتفاصيل أنه: (كان هانيء بن عروة مواصلاً لشريك بن الأعور البصري الذي قام ولعل الصحيح قدم) مع ابن زياد، وكان ذا شرف بالبصرة وخطر، فانطلق هانيء إليه حتى أتى به منزله، وأنزله مع مسلم بن عقيل في الحجرة التي كان فيها. وكان شريك من كبار الشيعة بالبصرة..... ومرض شريك بن الأعور في منزل هانيء بن عروة مرضاً شديداً، وبلغ ذلك عبيد الله بن زياد، فأرسل إليه يعلمه أنه يأتيه عائداً. فقال شريك لمسلم بن عقيل: إنما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية، وقد أمكنك الله منه، هو صائر إلى ليعودني، فقم، فادخل الخزانة حتى إذا اطمأن عندي، فاخرج إليه، فقاتله، ثم صر إلى قصر الإمارة، فاجلس فيه، فإنه لا ينازعك فيه أحد من الناس، وإن رزقتي الله العافية صرت إلى البصرة، فكفيتك



أمرها، وبائع لك أهلها. فقال هانئ بن عروة: ما أحب أن يقتل في داري ابن زياد. فقال له شريك: ولم؟ فوالله إن قتله لقربان إلى الله. ثم قال شريك لمسلم: لا تقصّر في ذلك. فبينما هم على ذلك إذ قيل لهم: الأمير بالباب. فدخل مسلم بن عقيل الخزانة، ودخل عبيد الله بن زياد على شريك، فسلم عليه، وقال: ما الذي تجد وتشكو؟ فلما طال سؤاله إياه استبطأ شريك خروج مسلم، وجعل يقول، ويُسَمِعُ مسلماً:

ما تنظرون بسلمي عند فرصتها

فقد وقى وُدُّها، واستوسق الصَّرمُ^(١)

وجعل يردد ذلك. فقال ابن زياد لهانئ: أيهجر؟ - يعني يهذي -. قال هانئ: نعم، أصلح الله الأمير، لم يزل هكذا منذ أصبح. ثم قام عبيد الله وخرج، فخرج مسلم بن عقيل من الخزانة، فقال شريك: ما الذي منعك منه إلا الجبن والفسل. قال مسلم: منعني منه خلتان: إحداهما كراهية هانئ لقتله في منزله، والأخرى قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إن الإيمان قيّد الفتك، لا يفتك مؤمن. فقال

(١) استوسق الأمر إذا أمكن، والصرم: الطائفة المجتمعة من القوم.

شريك: أما والله لو قتلته لاستقام لك أمرك، واستوسق لك سلطانك. ولم يعيش شريك بعد ذلك إلا أياماً حتى توفي، وشيخ ابن زياد جنازته، وتقدم فصلى عليه^(١).

فإننا ننقسم عادةً بين مؤيد لموقف مسلم وبين رافض، بل ولربما مستهجن أو مستغرب من مثل هذا التصرف الذي كان له أن يغيّر مسار الأحداث بشكل تام، لنعود إلى نفس المشكلة الشرعية والأخلاقية عند بروز مثل هذه التعارضات والبحث عن المرجّحات، علماً بأننا إذا استهجننا موقف مسلم بن عقيل أو استغربناه أو رفضناه فإننا نحكم بذلك بعد انتهاء الأحداث وجلاء المشهد، بينما كانت الصورة مختلفة تماماً في لحظة الحدث، لاسيما إذا لاحظنا ذيل الرواية السابقة حيث يقول الراوي بعد ذلك: (ولم يزل مسلم بن عقيل يأخذ البيعة من أهل الكوفة حتى بايعه منهم ثمانية عشر ألف رجل في ستر ورفق) مما يدل على أن حكمنا على موقف مسلم يجب أن يكون على ضوء قراءة دقيقة للمشهد بعد أن نضع أنفسنا في إطاره الزمني وضمن

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ٢٣٢.



تراتبية الأحداث، لا من خارج المشهد بعد انتهائها بشكل تام.

وعلى كل حال، ستكون لنا وقفة في محاولة لاستجلاء الموقف الشرعي والأخلاقي ضمن مجموعة من القواعد الشرعية والأخلاقية التي يمكن لها أن تكون حاسمة في تقديم إجابة على هذه المعضلة.



الحسن والقبح



في خضم النظريات المختلفة التي عرضتها مسبقاً
حول الحكم على العمل من وجهة نظر أخلاقية ضمن الآثار
الرهيبية التي خلفتها جائحة كورونا، هل هناك شيء في
الإسلام يمكنه أن يحدد مدى أخلاقية العمل من عدمه؟

عندما نعود إلى نتاج الفقهاء المسلمين وعلمائهم ومفكرهم، سنجد أنهم يختلفون بشكل كبير أحياناً فيما يقدمونه من إجابات في هذا الإطار، وهذا من طبيعة الاختلاف في مناهج الاجتهاد السائدة، والاعتماد على الروايات المتضاربة، وكيفية تحليل النصوص، وفك التعارض ومدى شمولية ثقافة الفقيه أو المفكر أو العالم وغير ذلك.

واحدة من موارد الخلاف الرئيسية والمهمة والمؤثرة هي تفسيرهم لمصدر حُسن الفعل وقُبْحه، فإحدى النظريات الإسلامية تذهب إلى أن الذي يحدد ذلك هو الشرع، بينما تذهب مدرسة أخرى إلى أن الحسن والقبح ذاتيان ويمكن التوصل إليهما عن طريق العقل، والشرع يقوم بالتوضيح والتأكيد وما إلى ذلك.

• مثال تطبيقي:

نتيجة هذا الخلاف مثلاً، أن أصحاب الرأي الأول لو اقتنعوا بالروايات التي تكلمت عن كيفية التعامل مع الأوبئة، بأن التصرف الفلاني هو اللازم أو الأفضل أو مكروه وأمثال

ذلك، فسينتهي بهم المطاف إلى الحكم عليه شرعياً وأخلاقياً، والقول بحسن ذلك التصرف أو قبحه. ولنلاحظ ما جاء في المسألة التالية المنشورة على الإنترنت والتي ننقلها كما وردت دون تصرف:

س. ما حكم التداوي؟

القول الأول: تركه أفضل، وهو المنصوص عليه في مذهب الحنابلة، ونقل عن الإمام أحمد أنه قال: (أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره)، وقد كانت تكون به علل فلا يخبر الطبيب بها إذا سأله. واستدلوا لذلك بأدلة منها:

(١) عن ابن عباس «رضي الله عنهما» أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمْرَوْنَ مَعَهُمُ الرُّهْطَ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ. قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أَمْتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأَفْقَ. ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ. فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأَفْقَ. قِيلَ: هَذِهِ أَمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ

من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب. ثم دخل ولم يبين لهم فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنّا بالله واتبعنا رسوله، فتحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنّا وُلدنا في الجاهلية؟ فبلغ النبي «صلى الله عليه وسلم» فخرج فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتبون، وعلى ربهم يتوكلون. فقال عكاشة بن محصن: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: نعم. فقام آخر فقال: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قال: سبقك بها عكاشة^(١).

(٢) عن عطاء بن أبي رباح «رضي الله عنه» قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي «صلى الله عليه وسلم» فقالت: إني أصرع، وإني أتكشّف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشّف، فادع الله لي أن لا أتكشّف، فدعا لها^(٢).

(١) البخاري: صحيح البخاري، ح ٥٣٧٨.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، ح ٥٣٥٢.

٣) كما استدلوأ بأن خَلَقاً من الصحابة والتابعين لم يكونوا يتداوون، بل فيهم من اختار المرض، كأبي بن كعب، وأبي ذر «رضي الله عنهما»، ومع هذا فلم ينكر عليهم ترك التداوي.

القول الثاني: لا يجوز التداوي، وقال به غلاة الصوفية، وعللوا رأيهم: بأن الولاية لا تتم إلا إذا رضي بجميع ما نزل به من البلاء، فالواجب على المؤمن أن يترك التداوي اعتصاماً بالله وتوكلاً عليه وثقة به، وانقطاعاً إليه، فإن الله قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾^(١). فما دام كل شيء بقضاء وقدر فلا حاجة إلى التداوي. واستدلوأ على هذا بما يلي:

١) عن المغيرة بن شعبة «رضي الله عنه» قال: قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: «مَنْ أَكْتَوَى أَوْ اسْتَرْقَى، فَقَدْ بَرَىءَ مِنَ التَّوَكُّلِ»^(٢).

(١) سورة الحديد: ٢٢.

(٢) الترمذي: السنن، ح ٢٠٥٥.

٢) وعن المغيرة بن شعبة «رضي الله عنه» عن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: لم يتوكل من استرقى واكتوى^(١).

القول الثالث: أنه مشروع، لما ورد في شأنه في القرآن الكريم والسنة القولية والعملية، ولما فيه من (حفظ النفس) الذي هو أحد المقاصد الكلية من التشريع؛ واختار القاضي أبو يعلى، وابن عقيل، وابن الجوزي أن فعل الدواء أفضل من تركه. واختلفوا في مشروعيته على قائل بالوجوب وقائل بعدم الوجوب:

أ- فذهب جمهور العلماء إلى عدم الوجوب؛ قال ابن تيمية: (ليس بواجب عند جماهير الأئمة، إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد).

ب- وذهب جماعة منهم إلى أنه مباح، وهو قول جمهور العلماء من الحنفية والمالكية.

أما إذا خشي الإنسان على نفسه التلف بتركه فإنه حينئذٍ يجب، وقد أخذ مجمع الفقه الإسلامي بالقول بوجوب التداوي إذا كان تركه يفضي إلى تلف النفس أو أحد الأعضاء

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، ح ٢٣١٣٤.

أو العجز، أو كان المرض ينتقل ضرره إلى غيره، كالأمراض المعدية. وهذا يؤخذ منه أن الدواء إذا تُيقن نفعه وكان المرض مما يخشى منه التلف، وجب التداوي، فيدخل في ذلك إيقاف النزيف، وخياطة الجروح، وبتتر العضو التالف المؤدي إلى تلف بقية البدن، ونحو ذلك مما يجزم الأطباء بنفعه وضرورته، وأن تركه يؤدي إلى التلف أو الهلاك.

الأدلة على مشروعية التداوي:

(١) قال الله «تعالى» عن الغسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(١) فهو دليل على جواز التداوي بشرب الدواء.

(٢) عن أبي الدرداء «رضي الله عنه» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام^(٢).

(٣) عن أسامة بن شريك «رضي الله عنه» قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، ألا نتداوى؟^(٣) قال: نعم يا عباد الله

(١) سورة النحل: ٦٩.

(٢) الصالحى الشامى: سبل الهدى والرشاد، ج ١٢، ص ١١٨.

(٣) المباركفوري: تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى، ح ٢٠٣٨.

تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ودواء إلا داء واحدا، قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: الهرم^(١).

هذا نموذج من نماذج تأثير مقولة أن الحسن ما حسنه الشرع، والقبح ما قبحه.

• قواعد ضرورية:

ثم إن القائلين بالحسن والقبح الذاتيين يقولون أن تحقق الحسن في فعل ما يعتمد على:

(١) نية التقرب إلى الله «تعالى» والإخلاص في العمل لوجهه «سبحانه»، وهي أرقى صور الدافعية عند الإنسان. ففي معرض وصف حال الناس يوم القيامة وانقسامهم إلى أهل النار وأهل الجنة، قال «عز وجل»: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾^(٢)، أي أن الذي بلغ الدرجة العليا في تقواه سيُزحزح عن النار، ومن صفته أنه يبذل ماله ابتغاء تحقيق المزيد من الخير على مستوى الآخرين بمساعدتهم بذلك

(1) <https://www.saaaid.net/Doat/dhafer/45.htm>

(٢) سورة الليل: ١٧-٢٠.



المال، وعلى المستوى الشخصي بتطهير النفس من البخل والتعلق بالمادة. وليس إنفاقه ذاك مكافأةً لمن أسدى إليه معروفًا، لكنه يبتغي بذلك وجه ربه الأعلى ورضاه، فكل ما يقوم به من فروض الطاعة والأعمال الصالحة ابتغاءً لوجه الله، وطلباً للحصول على مرضاته في كل شيء. وقد أكد النبي «صلى الله عليه وآله» دور النية في تقييم العمل حيث قال: (إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى) ^(١).

(٢) أو الدافع الإنساني أو الوازع الأخلاقي الفطري والذاتي، حتى ولو لم يقصد الإنسان من فعله هذا التقرب إلى الله. ومن هنا جاءت بعض الأحاديث لتؤكد أن أفعال الكافرين المتوافقة مع القيم الأخلاقية الأصيلة في الإنسان لها قيمة، ويحكم بحسنها، وسيترتب عليها أثر في الآخرة.

ومن شواهد ذلك، الحوار الذي جرى بين النبي «صلى الله عليه وآله» وبين سفانة بنت حاتم الطائي التي وقعت أسيرة بيد المسلمين، فقالت: (يا محمد إن رأيت أن تخليّ عنا، ولا تشمت بنا أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإنّ

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢١٢.

أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقرى الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيء. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا جارية، هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه، خلّوا عنها، فإنّ أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، والله «تعالى» يحب مكارم الأخلاق. فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، والله يحبّ مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحدٌ إلا بحسن الخلق^(١).

قال السيد كاظم اليزدي (ت ١٣٣٧هـ): (ترتّب الثواب موقوف على قصد القربة، مع أنه يمكن أن يقال بترتبه على الأفعال الحسنة وإن لم يقصد بها وجه الله، فإن الفاعل لها يستحق المدح عند العقلاء وإن لم يقصد بفعله التقرب إلى الله، فلا يبعد أن يستحق من الله التفضل بالثواب، ويؤيده: ما في الأخبار المرغبة من انتفاع الميت بولده الصالح، مع أنه لم يقصد القربة في طلبه، وإنما قصد لذة النفس

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٥، ص ٨٠.

بالمقاربة أو بتحصيل الأولاد^(١).

٣) حُسِنَ الفعل في نفسه ذاتاً، كإيواء اليتيم والإنفاق عليه، أو بلحاظ ما، كمعاقبة السارق بالسجن مثلاً من أجل صلاح المجتمع وحفظ الحقوق.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نفترض أن يكون الفعل:

١. حسناً في بُعديه الفعلي والفاعلي، كمن يبني مسجداً (البعد الفعلي) خالصاً لوجه الله تعالى (البعد الفاعلي)، أو يبني داراً للأيتام بدافع إنساني محض. وإن كانت النية الأولى أعلى مستوى.

٢. قبيحاً في بُعديه الفعلي والفاعلي، كالبلطجي الذي يعتدي على الأبرياء إرضاءً لسيِّده.

٣. حسناً في بُعده الفعلي، وقبيحاً في بُعده الفاعلي، كمن يُشيد مشروعاً خيرياً، ولكن دافعه هو الرياء والمصلحية وغسيل الأموال.

٤. قبيحاً في بُعده الفعلي، وحسناً في بُعده الفاعلي،

(١) اليزدي: العروة الوثقى، ج ٦، ص ٢٨٢.

كمن قام بإخراج مصاب في حادث مركبة فأصابه بعاهة مستديمة بسبب خطأ إجرائي، ولكن نيته هي إنقاذه من الموت. وينبغي هنا أن نلاحظ أن التعامل مع ظواهر الأمور لا يقودنا على الدوام إلى الحكم الصحيح على الفعل، فلو أننا نظرنا إلى شخص يضرب يتيماً، وتعاملنا مع ظاهر الأمر فإننا لن نتردد بالحكم على عمله بالقبح، لكن لو أطلعنا على أن هذا الضرب هو بغرض التأديب لا التشفي والانتقام، لغيرنا رأينا وحكمنا على فعله بالحسن.

في المقابل لو أننا رأينا شخصاً يهّم بقتل إنسان بريء وقد أطلق النار أو السهام عليه، فإننا سوف نصف عمله بالقبح حتى لو أن السهم أخطأ الهدف وأصاب شخصاً مُجرماً مستحقاً للقتل؟

ثم أحياناً قد نتحدث في المطلقات وننظر إسلامياً، ولكن عندما نأتي إلى التطبيق نعيش حالة من عدم الوضوح، والحاجة إلى اتخاذ قرارات قد تتصادم مع النظرية، وقد يفسرها أحدهم بطريقة معينة لأنه أخذ بعين الاعتبار أمراً ما، فيصل إلى نتيجة تختلف عن تلك التي توصل إليها

الذي لم يلاحظ تلك الخصوصية. والأمثلة المضروبة في المحاضرة السابقة توضّح هذا الأمر كثيراً.

فمن يعتمد على القبح أو الحُسن الذاتي للفعل، كيف يتصرّف في حالة التعارض بين علاج مريضين، أو الإبقاء على مريض كبير في السن وهناك طابور من المرضى الشباب المحتاجين لهذا الجهاز... إلخ؟

• أخلاقيات المهنة:

يجب أن نعرف أن هناك ما يُعرف بعنوان أخلاقيات المهن Code of Practice، أو Professional Ethics ومن بينها أخلاقيات المهن الطبية والصحية. وقد أقر المؤتمر العالمي الثامن للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في القاهرة والذي انعقد في ١٠ من ديسمبر ٢٠٠٤م، أول ميثاق إسلامي للأخلاقيات الطبية متفق عليه بين الدول الإسلامية، واصطُِّلح على تسميته (الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية) Islamic Code of Health Ethics، وقام بإعداده نخبة من العلماء المسلمين في مجالات العلوم الطبية والشريعة الإسلامية،

ويقوم على خمسة مبادئ، وهي باختصار كالتالي:

المبدأ الأول: الإنسان مكرم (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) بغض النظر عن لونه وجنسه ومعتقده.

المبدأ الثاني: الحياة حق لكل إنسان، وهي مقدّسة محترمة مدافع عنها، وقيمة النفس البشرية الواحدة تعدل قيمة البشر جميعاً.

المبدأ الثالث: العدل، فمن الأمور التي لا جدال فيها ضرورة تحقيق العدالة والمساواة في تقديم الرعاية الصحيّة، من دون أدنى تمييز بينهم بسبب الجنس أو العرق أو العقيدة أو الانتماء السياسي، أو بسبب أي اعتبار اجتماعي أو قضائي أو غير ذلك من الأسباب.

المبدأ الرابع: الإحسان، ويتضمن مجموعة من المعاني في وقت واحد، وهي الجودة، فالحسن هو الجيد، ومن هنا ينبع مفهوم ضمان الجودة في تقديم الرعاية الصحية. وتتضمن معنى اللمسة الرفيعة الحانية، ونفسية العطاء، حيث يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، بل ويؤثر على نفسه، ولو كان به خصاصة. ويتضمّن الإحسان كذلك صحة

الضمير ومراقبة الله «عز وجل» في كل تصرف وسلوك.

المبدأ الخامس: لا ضرر ولا ضرار، حيث لا يجوز الإضرار بالنفس، أو الإضرار بالغير، أو الإضرار بالمجتمع، بأي شكل من الأشكال.

كما ويتشكل هذا الميثاق من (١٠) أبواب، تتضمن (١٠٨) مادة، واخترت بعضاً منها مما يمسّ المسألة التي نستعرضها:

المادة ٢٢: (لا يجوز للطبيب إنهاء حياة المريض، ولو بناءً على طلبه أو طلب وليّه أو وصيّّه، حتى ولو كان السبب وجود تشوّه شديد، أو مرض مستعص ميؤوس من شفاؤه، أو آلام شديدة مبرحة لا يمكن تسكينها بالوسائل المعتادة، وعلى الطبيب أن يوصي المريض بالصبر، ويذكره بأجر الصابرين).

المادة ٥٧: (عند اختيار الإجراءات والطرق الوقائية والعلاجية التي تضمن تحقيق مستوى ملائم من الرعاية الصحية، يلتزم الأطباء بمراعاة الاعتبارات الأخلاقية الآتية:

(أ) مدى استفادة المريض من البرنامج العلاجي؛

(ب) احتمال استفادة المريض من العلاج؛

(ج) مدة هذه الاستفادة؛

(د) تكلفة العلاج؛

(هـ) عدد المرضى الذين سيستفيدون من العلاج.

المادة ٦٢: لحياة الإنسان حُرمتها، ولا يجوز إهدارها إلا في المواطن التي حددها الشرع والقانون، وهذه جميعاً خارج نطاق المهنة الطبية تماماً. ولا يجوز للطبيب أن يساهم في إنهاء حياة المريض ولو بدافع الشفقة، ولا سيما في الحالات الآتية مما يُعرف بقتل الرحمة:

(أ) القتل العمد لمن يطلب إنهاء حياته بملء إرادته ورغبته؛

(ب) الانتحار بمساعدة الطبيب؛

(ج) القتل العمد للولدان المولودين بعاهات خلقية قد تهدد حياتهم أو لا تهددها.



المادة ٦٣: لا تدرج الحالات التالية (على سبيل المثال)
في مسمى قتل المرحمة:

أ) وقف العلاج الذي يثبت عدم جدوى استمراره بقرار
من اللجنة الطبية المختصة بما في ذلك أجهزة الإنعاش
الاصطناعي؛

ب) صرف النظر عن الشروع في معالجة يُقطع بعدم
جدواها؛

ج) تكثيف العلاج القوي لدفع ألم شديد، رغم العلم
بأن مثل هذا العلاج قد يُنهي حياة المريض^(١).

هذه المواد وغيرها مما جاء في الوثيقة تعالج -من
وجهة نظرها- بعض الإشكالات المطروحة، وتُقدّم للأطباء
خياراتهم في عديد من الحالات الصعبة، ولكن لا تكتمل
الصورة إلا بأن نأخذ فكرة، ولو إجمالية حول بعض القواعد
الموضوعة من قبل الفقهاء والمفكرين المسلمين لمعالجة
حالات مختلفة من التعارض، وما هي المرجحات التي

يطرحونها -ولو نظرياً- في معالجة هذه الإشكاليات، وهو ما سأخصص له الموضوع القادم بإذن الله «تعالى».

• مصداقية الأنصار:

وأعتقد أن كل ما عرضته خلال الموضوعات السابقة حول هذه المعضلة الشرعية والأخلاقية يؤكد أن المسألة ليست سهلة، لاسيما إذا ارتبط الأمر بالآخرين. أي أن القرار لو كان يخص الفرد نفسه فقط لربما أصبح أهون بكثير مما لو أنه سيؤثر على عشرات غيره، وهذا بالضبط هو الموقف الذي واجهه الإمام الحسين «عليه السلام» ليلة العاشر من المحرم.

فبعد أن اتضحت الصورة، وأن الأمور تسير نحو مواجهة حاسمة وغير متكافئة تماماً من حيث العدد، أصحراً لأصحابه بالأمر، وعرض عليهم الانسحاب من ساحة المواجهة.

فقد روى الطبري وآخرون بألفاظ مختلفة عن الإمام علي بن الحسين «عليهما السلام» أنه قال: (أتانا رسول من قبل عمر بن سعد فقام مثل حيث يسمع الصوت فقال إنا قد أجلناكم إلى غد فان استسلمتم سرحنا بكم إلى أميرنا

عبيد الله بن زياد وإن أبيتم فلسنا تارككم) ثم قال: (جمع الحسين أصحابه بعد ما رجع عمر بن سعد وذلك عند قرب المساء. قال علي بن الحسين: فدنوت منه لأسمع وأنا مريض، فسمعت أبي وهو يقول لأصحابه: أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين. أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنى جميعاً خيراً، ألا وإني أضن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم منى ذمام. هذا ليلٌ قد غشيكم، فاتخذوه جملاً^(١).

ثم روى الطبري عن الضحاک بن عبد الله المشرقي قوله في تنمة هذا الحدث: (هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرقوا في

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٥.

سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإنَّ القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري. فقال له إخوته وأبناءؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لمَ نفعل؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً. بدأهم بهذا القول العباس بن علي، ثم إنهم تكلموا بهذا ونحوه. فقال الحسين «عليه السلام»: يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا قد أذنت لكم. قالوا: فما يقول الناس؟ يقولون: إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندرى ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ونقاتل معك حتى نردَّ موردك، فقبَّح الله العيش بعدك.... فقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمته في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك. قال: وقال سعد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله



«صلى الله عليه وآله» فيك. والله لو علمتُ أنى أقتلُ ثم أحيأ
ثم أحرق حياً ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك
حتى ألقى حمامي دونك. فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة
واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً قال وقال
زهير بن القين: والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت
حتى أقتل كذا ألف قتله وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك
وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك. قال: وتكلم جماعة
أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد فقالوا: والله
لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء نقيك بنحورنا وجباهنا
وأيدينا فإذا نحن قتلنا كنا وفينا وقضينا ما علينا^(١).

وصدق أنصار الحسين فيما قالوا، وكانوا في يوم العاشر
ليوث الميدان، وقدّموا بدمائهم التي سالت دفاعاً عن الحق
خير مثال على التضحية والفداء والإيثار.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٥-٣١٦.

فقه الأولويات

في الفقه الإسلامي هناك باب (التعارض والتراجيح) الذي طُرح منذ الصدر الإسلامي الأول، وهناك (فقه الأولويات) الذي انبثق عنه مؤخراً، وهذا الباب مهم جداً فيما تحدثنا عنه حول تعارض وتزاحم الاختيارات أمام

الإنسان في قضايا تكون حساسة جداً أحياناً، بل وخطيرة جداً وتتعلق بحياة الناس ومصائرهم.

الاطلاع ولو بشكل إجمالي على بعض مفردات هذا الباب في الفقه الإسلامي يمكنه أن يساعد بشكل كبير في بيان وتوضيح المسألة أكثر من وجهة نظر شرعية، لاسيما وأن من المفترض أن لا يتباين الموقف الفقهي مع الأخلاقي، لأن الفرض أن المصدر واحد، فمن زرع في الإنسان القيم وأعطاه الضمير والفطرة والعقل هو نفسه الذي أرسل النبي وأنزل القرآن، والذي أمر النبي بأن يعلم الناس كيف يزكّون أنفسهم، هو نفسه الذي أمره بأن يعلم الناس الأحكام (الكتاب).

وقد قام الدكتور الشيخ حيدر حب الله -في الوسط الشيعي- بتخصيص فصل من كتابه (فقه المصلحة) لمعالجة موضوع فقه الأولويات وقانون التزاحم، كما سبقه إلى ذلك عدة -في الوسط السني- من بينهم الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي في كتاب حمل عنوان: (في فقه الأولويات).

المصطلح جديد، ولكن أصل البحث ليس بجديد، وكان يطرح أحياناً بعنوان (فقه مراتب الأعمال)، وعند الشيعة بعنوان (التراحم وتقديم الأهم على المهم)، على أن ما بات يُكتب تحت عنوان (فقه الأولويات) صار ذا مدى أوسع ويشمل بحوثاً وأبواباً أكثر، ويهتم بتقديم المصاديق التي تهتم العاملين في الساحة الإسلامية والدعاة والمبلغين، في البُعد الأخلاقي والعملي، ولا يكتفي بالتنظير والبحث المجرد.

ومن هنا يمكن القول أن فكرة فقه الأولويات انطلقت في العصر الحديث من معاناة العاملين في ميدان العمل الإسلامي والسياسة الشرعية، بغرض ضبط عملية إدارة تطبيق الشريعة والتعامل مع الوقائع ومتطلباتها بطريقة أكثر عقلانية ومنطقية بحيث لا تُهدر القيم الأكبر لأجل التفاصيل، ولا يغرق العمل الإسلامي في التفاصيل تاركاً الأمور الأهم.

لذا طالب بعض الفقهاء والمفكرين في العصر الحديث بضرورة أن تتبنى المؤسسة الدينية فقه الأولويات، وتبرمج أهدافها وخطواتها تبعاً لذلك.

من أبرز الأمثلة على ذلك الخطاب الديني، فإنه إذا ركّز على قضايا أقل أهمية واستغرق فيها، فإن الساحة ستخسر الكثير نتيجة هذا الانشغال، وسيتم استنزاف موارد مالية وبشرية وطاقات ووقت وتفكير هي بحاجة إليها، كما سيولد نتيجة ذلك جمهور ضعيف أو هزيل في وعيه الديني.

وهناك أمثلة من حياة الناس أيضاً، حيث يقوم البعض بالكذب بادّعاء المرض وأخذ إجازة مرضية مع راتب من أجل العمرة أو زيارة المراقد، فهنا تم ارتكاب المحرم أو أكثر من محرم لأجل عمل مستحب.

وقد وصف الشيخ المطهري ذلك بقوله أن مثل هذا السلوك لدى عامة الناس يكشف عن عجز العقل الديني عن فهم الأولويات وفقاً لمنظومة التشريع الديني، وهكذا فكم من مستحب أضحى أكثر أهمية من الواجب، وكم من مكروه صار التشديد عليه أبلغ من التشديد على الحرام! وقد أسماها الشيخ المطهري (معركة المصالح الاجتماعية) والتي تجعل الفقيه غير العارف بزمانه يتجاهل كبريات الهموم والمشاكل واقفاً عند صغرياتها، معظماً لها أحياناً.

الشيخ حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) تحدث عن مثل هذه الحالة عند بعض الجماعات المتدينة، قال: (فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه... وربما أكل الحرام المحض^(١)).

هنا تبرز أهمية أن يمتلك الإنسان (عقلية الأولويات) لإدارة الأمور، وهي تأتي من خلال أمور:

١. دراسة النصوص مع فهم مستويات الأحكام المنبثقة عن هذه النصوص ودرجاتها.

نجد في بعض الروايات ما يؤكد فكرة التراتبية في مستويات الأحكام ودرجاتها، ومن ذلك ما روي عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» قال: (لا تعاد الصلاة إلا من خمسة: الطهور، والوقت، والقبلة، والركوع، والسجود. ثم قال «عليه السلام»: القراءة سنة، والتشهد سنة، والتكبير

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٤١١.

سنة، ولا ينقض السنة الفريضة^(١). فالفريضة أعلى مستوى من السنة، ومعنى الفريضة هنا ما فُرض في القرآن، ومعنى السنة ما سنّه النبي ولم يُذكر في القرآن. في الصلاة الطهور، بأن تكون على وضوء فريضة مذكورة في القرآن، وكذلك الوقت والقبلة والركوع والسجود، كلها مذكورة في وصف الصلاة. أما قراءة الحمد والسورة فهي سنة نبوية، النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي سنّها، ولا يوجد في القرآن أن نقرأ الحمد وسورة في الصلاة، ولذا فهي تأتي في مرتبة أدنى من الفرائض. وكذلك الأمر بالنسبة إلى التشهد، والتكبير. ومن هنا لو أنك أتيت بالفرائض ولم تأت بسنة لم تبطل الصلاة. هذا مثال فقهي في سلم الأولويات في الأحكام.

مثال فقهي آخر: عن زرارة قال: (قلت لأبي جعفر «عليه السلام»: الرجل يُقَلِّمُ أظفاره ويجز شاربته، ويأخذ من شعر لحيته ورأسه هل ينقض ذلك وضوءه؟) وجاء الجواب على قسمين، الأول بتقديم قاعدة عامة يستفيد منها في موارد

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٤٧١.

أخرى (قال: يا زرارة، كل هذا سنة، والوضوء فريضة، وليس شئ من السنة ينقض الفريضة). هذه هي القاعدة، كل شيء مفروض في القرآن يأتي كأولوية، ويكون أقوى مرتبة مما ليس في القرآن من الأمور الواجب الإتيان بها أو التي يستحب الإتيان بها. ثم أضاف الإمام أن المسألة على عكس التساؤل: (وإن ذلك ليزيده تطهيراً) ^(١).

مثال أخلاقي: الحسن الصيقل يسأل الإمام الصادق عما بلغه عن أبيه الإمام الباقر «عليه السلام» من إجابة حول مسألتين قرآنيتين، من حيث مدى صحة المضمون ومدى صحة النقل، قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: إنا قد رويانا عن أبي جعفر «عليه السلام» في قول يوسف «عليه السلام» ﴿أَيُّهَا الْعِيزُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ^(٢) فقال: واللّه ما سرقوا وما كذب، وقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ^(٣). فقال: واللّه ما فعلوا، وما كذب). فهل هذا المضمون مقبول؟ وهل الرواية عن الباقر

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) سورة يوسف: ٧٠.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٣.

سليمة؟ جاء جواب الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» كالتالي: (ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا فيها إلا التسليم، قال، فقال إن الله أحب اثنين، وأبغض اثنين: أحب الخضر) مشي الخيلاء والتكبر والاعتزاز بالقوة (فيما بين الصنفين^(١)) وأحب الكذب في الإصلاح. وأبغض الخضر في الطرقات، وأبغض الكذب في غير الإصلاح. إن إبراهيم «عليه السلام» إنما قال ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ إرادة الإصلاح، ودلالة على أنهم لا يفعلون، وقال يوسف «عليه السلام»: (إرادة الإصلاح)^(٢). هنا تترتب الأولويات، توهين عزائم العدو بمشية التبخر، وهي صفة أخلاقية سلوكية مبغوضة وملازمة للتكبر أو العجب، وكذلك الإصلاح بين المتخاصمين، أو إصلاح المجتمع من خلال ذكر افتراض غير حقيقي من أجل فتح العيون على الحقيقة الصادمة وذلك عن طريق الكذب.

(١) أمام العدو المحارب كما أثنى النبي «صلى الله عليه وآله» على مشية أبو دجانة الأنصاري يوم أحد حين جعل يتبخر بين الصنفين فقال «صلى الله عليه وآله»: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٣٧.



وفي القرآن الكريم إشارة واضحة إلى موضوع التراتبية وأهمية وضع سلم للأولويات بحيث يتم من خلال ذلك المفاضلة بين الأمور حيث قال «تعالى»: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) وقد روى عدة من المفسرين - كما في تفسير الطبري وغيره - أن الآية تخص المفاضلة بين طلحة بن شيبة وبيده مفتاح الكعبة، والعباس عم النبي وبيده شئون السقاية، وعلي بن أبي طالب في تاريخه الإيماني والجهادي.

٢. فهم الواقع فهماً عميقاً، حيث أن الزمان والمكان يفرضان تحولات في الأولويات، ومن الخطأ الفادح أن نتصور أن أولويات القرون الهجرية الأولى هي كلها بالضرورة أولويات لجميع العصور.

كانت من أولويات النبي «صلى الله عليه وآله» في مجتمع المدينة والصراع القائم مع اليهود فكرياً وميدانياً واقتصادياً واجتماعياً، والخوف من ذوبان هوية المجتمع

المسلم الفتى في المجتمع اليهودي العتيق لاسيما مع ظهور بعض بوادر ذلك في مسألة القبلة وغيرها، أن يحافظ النبي بمجموعة من القرارات على هذا المجتمع الفتى وهويته، ومن هنا لما سئل أمير المؤمنين «عليه السلام» عن قول الرسول «صلى الله عليه وآله»: (غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود) قال: (إنما قال «صلى الله عليه وآله» ذلك والدين قل، فأما الآن وقد اتسع نطاقه) بكثرة أتباعه والامتداد الجغرافي (وضرب بجرانه) بتمكّنه (فامروء وما اختار)^(١).

• نتائج خطيرة:

النقطة الأخرى التي يجب الالتفات إليها أن التلاعب بسلم الأولويات قد يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً على مستوى فهم الدين وتطبيقه... وما يعاني منه المسلمون اليوم -في جانب ملحوظ منه- إنما يعود لذلك.

هذا الخلل ابتلي به اليهود بشكل كبير وواضح، بحيث أنهم استغرقوا في صغائر المسائل الشرعية إلى حد الوسوسة، بينما استسهلوا عظام الأمور وتجرأوا عليها بشكل غريب.

(١) الرضي: نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥.

كنت أشاهد برنامجاً وثائقياً عن طعام اليهود المتدينين في الولايات المتحدة، وعن اشتراطهم أن يكون صاحب المطعم يهودياً، أو أن يوظف يهودياً ليكون هو أول من يفتح الباب، ولكي يتأكد أن الطعام مطابق للمواصفات الشرعية، وإلا فإن اليهودي المتدين لن يدخل هذا المطعم ولن يطمئن إلى أكله.

في البداية كنت أتصور أن المسألة ترتبط باللحوم، ولكن تبين لاحقاً أن من مسؤوليات هذا الموظف أن يغسل الخس ويبحث -وبشكل دقيق جداً- في ورقة ورقة منها خلوها من أية حشرة صغيرة قد تكون ما زالت عالقة بها بعد الغسل. ولما سأله مقدّم البرنامج عن ذلك، قال أن أكل الحشرات محرّم عندهم، ولا بد من باب الاحتياط والحرص على تطبيق الشريعة اليهودية أن يقوم بذلك.

ويمكن أن نجد في القرآن الكريم إشارات لمثل هذه المفارقات عند الشخصية اليهودية، ومثال ذلك قصة البقرة التي بالغوا في الاستفسار عن مواصفاتها (الشرعية) بينما كانت الأولوية هي تنفيذ الأمر الإلهي وطاعة رسولهم

موسى «عليه السلام»: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

ومثل ذلك جرأتهم على قتل رُسل الله والتمرد عليهم متى ما لم ينسجموا معهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾^(٢)، في حين أنك عندما تراجع أحكام الذبائح عندهم وما يجوز أكله من الذبيحة وما هو محرم، تجدهم متشددين ومحتاطين إلى آخر درجة أنهم حرّموا ما لم يحرمه الله عليهم: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

ومن المفارقات عندهم إباحة قتل بعضهم البعض وتهجير بعضهم البعض مع أن الله حرّم ذلك عليهم وأخذ

(١) سورة البقرة: ٧١.

(٢) سورة البقرة: ٨٧.

(٣) سورة آل عمران: ٩٣-٩٤.



منهم الموثيق، بينما لو وقع أحدهم أسيراً عند (الأغيار) بادروا إلى استرجاعه ولو بأعلى الأثمان! فإما أن تكون للفرد حرمة أو لا تكون، أما بالنسبة إليهم فالمسألة مختلفة تماماً.

قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١). والسبب هو التلاعب في سلم الأولويات.

نفس ما ابتلي به اليهود من فقدان المعايير السليمة بسبب التلاعب في سلم الأولويات، ابتلي به المسلمون بعد ذلك. فعندما نراجع آيات السور المكية الأولى نجدها تذكر -بالإضافة إلى الصلاة والإيمان بالله وبالأخرة- عناوين مكررة تقريباً من الآثام والجرائم التي يرتكبها الإنسان،

ويهدّد الله بالعقاب عليها في الآخرة أشدّ العقاب، فما هي؟
 في ذلك الوقت، كانت أنواع المعاصي تُرتكب في مكة،
 الزنا وأخواتها من الفواحش، شرب الخمر، المعازف
 والغناء، القمار... ومع هذا نجد أن الآيات لا تتعرض للحديث
 عنها، بل هي تركّز على المعاصي المتعلقة بحقوق اليتامى
 والمساكين والعبيد والغش التجاري، مع ربط ذلك بالكفر
 بالآخرة. ثم إننا لو رجعنا إلى الترتيب الزمني لنزول الآيات
 المتعلقة بالقمار والزنا وشرب الخمر ومخالفات الستر
 الشرعي للمرأة، لوجدناها قد نزلت في العهد المدني...
 لماذا؟ ما هي الرسالة التي تريد هذه الآيات أن توصلها
 إلينا؟ ألا يحتاج الأمر إلى وقفة تفكّر حول نظرتنا للمعاصي
 ولو على مستوى الاحتمال؟

اليوم لو تطلّب من أيّ متديّن أن يضرب لك أمثلة على
 المعاصي وبشكل عفوي، فسيجيبك فوراً: الزنا، شرب
 الخمر، الغناء، القمار... ولعله نادراً ما يتبادر إلى الذهن
 مثال أكل حقوق الناس، والغش التجاري، والظلم الاجتماعي،
 والعدوان على الضعفاء، وعدم مساعدة المساكين.



أنا لا أريد هنا أن أهوّن من درجة المعاصي من قبيل الزنا وشرب الخمر والغناء المحرم والقمار وأمثال ذلك، ولا أدعو إلى التساهل في الاستجابة إلى الأوامر والنواهي الإلهية.. فالمعصية معصية، والحرام حرام.. والعقوبة الشديدة مُستحقّة، ولكن أريد أن أقول أن في تربيّتنا الدينية والأخلاقية والشرعية - كمسلمين عموماً - تركيزاً على أمور، في مقابل التهاون والتراخي في أمور أخرى يبدو أنها أكثر أهمية عند الله، وأعظم، وأخطر، أو بنفس المستوى على الأقل.

اليوم الخطاب الديني الأخلاقي والشرعي عند المسلمين على اختلاف طوائفهم، وفي عمومه، لا يركّز على هذا الأخطر والأعظم. وباعتقادي أن هذا أثر حتى على أجنّادات الإسلاميين من أعضاء مجلس الأمة في أولوياتهم. بل وحتى على أجنّادات التكفيريين والمتطرّفين الإسلاميين وعلى نظام عقوباتهم حين تسنّى لهم أن يحكموا في المناطق التي سيطروا عليها في الحروب الأهلية في البلاد المختلفة، فقد حكموا بادّعاءهم وفق الإسلام والخلافة الإسلامية.. فمن الذين عوقبوا؟ وعلى من أقيمت الحدود؟

• تناقضات سلوكية:

للأسف هناك شواهد عديدة على أنّ شريحة يُعتدُّ بها من المتديّنين من تأتيمهم فرصة متعلّقة بفساد مالي، أو يُطرح عليهم افتراض أن تأتيمهم مثل هذه الفرصة، فلا يتحرّجون، سواء أكان بصورة رشوة، أو المساهمة في غسيل أموال تجار المخدرات والأسلحة، أو التعدي على خزينة المال العام، وما إلى ذلك... ويجدون ألف تبرير وتبرير للإباحة.

ومثلهم متديّنون من أهل الصلاة والصيام والصفوف الأولى في الجماعات من إذا تعلّق الأمر بحقوق الناس تهاونوا.. يأكلون حقوق الناس في الصفقات التجارية، وتنفيذ المشاريع والمقاولات، وفي الموارد، وغير ذلك.

نفس هذه الشرائح لو عُرض على أصحابها أن يستمعوا إلى الغناء، أو أن يرتكبوا الزنا، أو أن يشتركوا في لعبة فيها شبهة قمارية، أو أن يأكلوا من طعام ما مشكوك التذكية، فإنك تجدهم في قمة التقوى، ويدخلون في أدق التفاصيل للاطمئنان إلى تجنّب الحرام.. وهذا ممتاز، ولكنه غير كاف، ولا تكتمل به فقط هوية الإنسان المتديّن.

وقد ظهرت بوادر من هذه الحالة على عهد النبي في المدينة المنورة، حيث كان البعض يحرص على مسائل صغيرة لربما هي من موروثات العادات والتقاليد، بينما قد يتهاون في مسائل يعتبرها الإسلام جوهريّة وتأسيسية في شخصية الإنسان المؤمن، وهي التي ينبغي العناية بها في المقام الأول، قال «تعالى»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١).

وفي مورد آخر لما كثر الجدل والخصام بين الناس بعد تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام نبههم الله تعالى أن هذه المسألة ليست أولوية لكم لتعيشوا كل هذا الصراع الفكري والنفسي فيما بينكم ومع اليهود، وأن الاستغراق في مسألة شرعية صغيرة لن يحقق التقوى التي هي غاية التشريعات: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكِتَابَ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي
الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾.

على أنَّ من المحتمل أنَّ الخلل الذي أصاب المسلمين لاحقاً في ترتيب سلّم الأولويات في التربية الشرعية والأخلاقية له امتداد تاريخي بعيد، يعود إلى تلاقي مصالح بعض الحكام الفاسدين مع وعّاظ السلاطين، حيث تمّ التركيز والتشديد على بعض العناوين والتغاضي عن عناوين أخرى، بما يخدم في نهاية المطاف مصالح القوى الحاكمة الفاسدة آنذاك. إنَّ الظلم الاجتماعي، والغش التجاري، وأكل حقوق الناس في التعاقدات الخدمية، واستغلال الضعفاء، والفساد المالي والإداري، لا تقلُّ قُبْحاً عن الزنا والاستماع إلى الغناء وشرب الخمر ولعب القمار، إنَّ لم تكن أشدَّ قُبْحاً وعقوبةً أخرويّةً.

وهذا ما يمكن أن نستشفه من تركيز السور المكية على نوعية محدّدة من المعاصي والجرائم في المجتمع المكي، على الرغم من أنّها لم تكن الوحيدة المنتشرة فيه حينذاك. وهذا ما يجب أن يدفعنا - في العموم - إلى إعادة النظر في خطابنا الديني الشرعي والأخلاقي، لا من حيث الأسلوب فحسب، بل ومن حيث المضمون أيضاً.

وواحدة من العناوين التي بحاجة إلى إعادة نظر وتعديل هو ما له علاقة بنظرتنا إلى المعاصي، من حيث حضور بعض مفرداتها الغائبة عن الذهنية المتديّنة، أو الحاضرة بدرجة ضعيفة من القُبْح لا تتحقّق من خلالها التقوى عند الابتلاء بها، على الرغم من أنّها - بحسب ظاهر القرآن الكريم - لا تقلّ سوءً عن كثير من المعاصي التي نتجنّبها، إنّ لم تكن أعظم وأكثَر خطراً وأشدّ عقوبة في الآخرة. ولعل في التجارب العديدة التي خاضها الإسلاميون وعاشناها على مرّ السنوات السابقة ما يكفي ليكون دليلاً على وجود مثل هذا الخلل الخطير الذي عبّر أمير المؤمنين «عليه السلام» عن جانب منه بقوله: (وَلِبَسَ الْإِسْلَامُ لِبَسَ الْفَرَوِ مَقْلُوباً).



هذا نموذج صارخ على ما تم التلاعب به في سلم الأولويات في تقديم صورة الدين للناس ومسح شخصية الإنسان المسلم بحيث يحتاط إلى درجة الوسوسة في الأمور البسيطة بينما لا يجتريء على عظام الأمور وكأنه لم يفعل شيئاً، وما ذاك إلا لأنه لا يرى فيها إلا أموراً متأخرة رتبة عن مسألة فرعية ترتبط بالنجاسة على الثوب أو طريقة غسل اليد في الوضوء، أتكون من الباطن أو الظاهر ومن المرفق أم من الكف، وهل وقعت الجزئية التاريخية كما هي مروية أم بصورة مختلفة بينما لا يبالي صاحب هذه التساؤلات لو هتك حرمة أخيه المؤمن أو عمل على تسقيط شخصيته أو الافتراء عليه بتعليقة أو تمريرة لرسالة وصلته عبر وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي.

• دور الأمويين:

وكان الأمويون بمثابة المحرّك أو الراعي لمثل هذا التوجّه الذي يغيّر حقيقة الإسلام ويقدمها بهذه الصورة الممسوخة التي عبّر عبد الله بن عمر عن الانزعاج منها بلحاظ أنها واحدة من العوامل التي سهّلت على البعض قتل الإمام

الحسين «عليه السلام». ففي صحيح البخاري: (حدثني محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب، سمعت ابن أبي نعم، سمعت عبد الله بن عمر، وسأله عن المُحَرَّم؟ قال: شعبة أحسبه يقتل الذباب، فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب، وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: هما ريحانتاي من الدنيا) (١).

في (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) لبدر الدين العيني: (إنما قال متعجبا حيث يسألون عن قتل الذباب ويتفكرون فيه، وقد كانوا اجتروا على قتل الحسين بن علي وابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهذا شيء عجيب، يسألون عن الشيء اليسير ويفرطون في الشيء الخطر العظيم) (٢).

وفي مسند أحمد بن حنبل: عن عبد الرحمن بن أبي نُعْمٍ: (كنتُ جالساً عند ابنِ عمرَ فجاءَ رجلٌ يسألُ عن دمِ البعوضِ

(١) البخاري: صحيح البخاري، ح ٢٥٧٦.

(٢) العيني: عمدة القاري، ج ١٦، ص ٢٤٣.

فقال له ابنُ عمرَ ممَّنَ أنتَ قال أنا من أهلِ العراقِ قال
انظروا إلى هذا يسأَلُنِي عن دمِ البعوضِ وقد قتلوا ابنَ رسولِ
اللهِ «صلى الله عليه وسلم» وقد سمعتُ رسولَ الله «صلى الله
عليه وسلم» يقولُ هما ريحَانَتَيَّ من الدُّنيا» (١).

وجاء في شرح الحديث: (أي: يرتكبون الموبقات،
ويَجْرُؤُونَ على قَتْلِ حَفِيدِ رسولِ الله «صلى الله عليه وسلم»،
ثمَّ بعد ذلك يُظهرون كمالَ التَّقْوَى والْوَرَعِ في نُسُكِهِمْ،
فيسألون عن قَتْلِ الذُّبَابِ) (٢).

ومن هنا كانت واحدة من الأسباب الرئيسة لنهضة
الحسين «عليه السلام» - بغض النظر عن مسألة الحكم - هي
السعي لتصحيح مفاهيم الدين وأسسهِ ومبادئهِ وتشريعاته
التي عبث بها الأمويون بشتى الطرق، حتى عادت الجاهلية
إلى الساحة بثوب الإسلام، وهذا ما لربما أشار إليه ضمناً
قمرُ بني هاشم العباس بن أمير المؤمنين حيث قال على ما
رواه عن لسانه ابن شهر آشوب في كتابه (المناقب) وذلك

(١) ابن حنبل: المسند، ج ٨، ص ١٦٨.

(٢) قاسم: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، ص ١٤٩٩.

قبيل استشهاده «رضوان الله عليه»^(١):

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

فقد كان الدفاع عن الدين والرسالة العنوان البارز في هذه النهضة، وقدّم من قدّم من الشهداء أنفسهم في يوم الطف -ومن أبرزهم أبو الفضل العباس «رضوان الله عليه»- قرباناً في هذا الطريق، وسعيّاً لتحمل المسؤولية العظيمة.

روى الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد: (فلما رأى العباس بن علي «رحمة الله عليه» كثرة القتل في أهله قال لإخوته من أمه - وهم عبد الله وجعفر وعثمان - يا بني أُمي، تقدموا حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله، فإنه لا ولد لكم. فتقدم عبد الله فقاتل قتالاً شديداً، فاختلف هو وهانئ بن ثبيت الحضرمي ضربتين فقتله هانئ لعنه الله. وتقدم بعده جعفر بن علي رحمه الله فقتله أيضاً هانئ. وتعمد خولي بن يزيد الأصبحي عثمان بن علي «رضي الله عنه» وقد قام مقام

(١) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٢٥٦.

إخوته فرماه بسهم فصرعه، وشد عليه رجل من بني دارم فاحتز رأسه. وحملت الجماعة على الحسين «عليه السلام» فغلبوه على عسكره، واشتد به العطش، فركب المِسْنَةَ تراب عال يحجز بين النهر والأرض الزراعية (يريد الفرات وبين يديه العباس أخوه، فاعترضته خيل ابن سعد وفيهم رجل من بني دارم فقال لهم: ويلكم حولوا بينه وبين الفرات ولا تمكّنوه من الماء، فقال الحسين «عليه السلام»: اللهم أظمئه. فغضب الدارمي ورماه بسهم فأثبته في حنكه، فانتزع الحسين «عليه السلام» السهم وبسط يده تحت حنكه فامتلات راحته بالدم، فرمى به ثم قال: اللهم إني أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك. ثم رجع إلى مكانه وقد اشتد به العطش. وأحاط القوم بالعباس فاقتطعوه عنه، فجعل يقاتلهم وحده حتى قُتل «رضوان الله عليه»، وكان المتولي لقتله زيد بن ورقاء الحنفي وحكيم بن الطفيل السنبسي بعد أن أثخن بالجراح فلم يستطع حراكاً^(١).

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٠٩.

ترجيح القيمة الأخلاقية

عندما يقع التزاحم بين الاختيارات، عادةً ما يتجه تفكير الإنسان إلى قاعدة تقديم الأهم على المهم، حيث تتم المفاضلة بين الاختيارين بناءً على ذلك، فإذا تبين أن أحد الطرفين أهم، أخذنا به، وتركنا الآخر.

وقد مرّت معنا بعض الأمثلة في الموضوع السابق الذي تحدثت فيه عن (فقه الأولويات) حيث قلت بأن التقوى وما يحقق التقوى من قبيل طاعة الله والإحسان إلى الناس وأمثال ذلك أهم وأولى من أن نستغرق في مسألة شرعية جزئية من قبيل تغيير القبلة، وهكذا فإن الإيمان والجهاد في سبيل الله أهم من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.

• معايير الأهمية:

ولكن الحقيقة أن قاعدة تقديم الأهم على المهم ليست القاعدة الوحيدة للتفاضل بين الأمور وترجيح طرف على آخر، بل صرّح بعض الفقهاء بأن هذه الوسيلة للترجيح تأتي في نهاية الخيارات المتاحة عند التزاحم.

وقبل أن أعرض بعض النماذج لحالات يكون فيها الترجيح قائماً على أسس وقواعد أخرى، لابد من التوقف عند نقطة مهمة ترتبط بهذا المرجّح، ويتمثل في السؤال التالي: ما هو المعيار في كون هذا الأمر أهم من الآخر؟ هل هو الأكثر نفعاً فقط؟ أي كلما زاد الحاصل والنتائج من الفعل أو الترك كان أهم؟ أي كلما زاد الثواب مثلاً كان أهم؟

فلنلاحظ النص التالي.. في وصية علي لمالك الأشر: (وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيئاً، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: «صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً»^(١)).

حتى أن جابراً الأنصاري يروي أن النبي انزعج كثيراً من تصرف أبي بن كعب حين أمّ المصلين في مسجد قباء فأطال في الصلاة فبلغته شكوى الطرفين الإمام والمأمون. عن جابر قال: (كان أبي بن كعب يصلي بأهل قباء فاستفتح سورة طويلة، فدخل معه غلام من الأنصار في الصلاة، فلما سمعه استفتحها انفتل من صلاته، فغضب أبي فأتى النبي «صلى الله عليه وسلم» يشكو الغلام، وأتى الغلام يشكو أبا، فغضب النبي «صلى الله عليه وسلم» حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال: إن منكم منفرين، فإذا صليتم فأوجزوا، فإن خلفكم الضعيف والكبير والمريض وذو الحاجة)^(٢).

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

(٢) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٢، ص ٢٣٢.

وفي مورد آخر، بلغه شكوى أحد المصلين من إطالة صلاة الفجر بشكل مرهق مما أدى إلى أن يتعمد أحد المأمومين للتأخر عن الحضور في بداية الصلاة: (حدثنا إسماعيل قال: سمعت قيساً قال: أخبرني أبو مسعود أن رجلاً قال: واللّٰه يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا. فما رأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في موعظة أشد غضباً منه يومئذ. ثم قال: إنّ منكم منفرّين، فأياكم ما صلى بالناس فليتجوّز) من الإيجاز والاختصار (فإنّ فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة) (١).

أما من كان منفرداً فليفعل ما يشاء، فعن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوّل ما شاء) (٢).

فمن دون شك أن الصلاة ذات نفع كبير وثواب الجماعة لا يُقدّر أحياناً بحسب عدد المأمومين، ولكن مع هذا كانت

(١) البخاري: صحيح البخاري، ح ٦٧٠.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، ح ٦٧١.

الأهمية لصالح مراعاة حال الناس في ضعفهم أو تعبهم. وقد يَطْرَأ أمر يستدعي الإسراع والتخفيف بشكل واضح في الصلاة المفروضة كما في الرواية التالية عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطلاتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه)^(١) على الرغم من عظيم الثواب في صلاة الجماعة مما لا يعد ولا يُحصى. والجنبه الأخلاقية فيما سبق واضحة جداً، فهو رسول الإنسانية، وما أرسل إلا رحمة للعالمين.

وهذا يدفعنا إلى القول أن مقياس أهمية السلوك قياساً بسلوك آخر لا يخضع فقط للنتائج النفعية، بل قد يخضع لمستويات خُلقية الفعل، فالمبرر الأخلاقي للفعل جعله أكثر أهمية من المبرر المصلحي المتمثل في زيادة الرصيد من الثواب. وهذا ما يجب أن يلتفت إليه كثيرون ممن يسألون: أيهما أثوب كذا أم كذا؟ فالمسألة لا يجب أن تكون على الدوام ضمن العقلية التجارية، وكأننا نتعامل مع الله ومع

(١) البخاري: صحيح البخاري، ج ٧٠٩.

المسائل المختلفة ونحن في بازار أو سوق للمزاد، فأحياناً يكون للجنبية الأخلاقية مدخلية في الأمر.

في الكافي عن الإمام الباقر «عليه السلام» أنه قال: (.... ولأن أعول أهل بيت من المسلمين: أسد جوعتهم، وأكسو عورتهم، وأكف وجوههم عن الناس أحب إلي من أن أحج حجة وحجة وحجة ومثلها ومثلها حتى بلغ عشرة ومثلها ومثلها حتى بلغ السبعين)^(١). والمراد الحج المندوب فيما لو دار الأمر بين هذا وهذا ولا بديل.

ونفس هذه الروحية الأخلاقية تتجلى في الرواية التالية التي يتفاضل فيها عملان، أحدهما عبادي والآخر إنساني، ففي الكافي بالسند عن سكين بن عمار، عن رجل من أصحابنا يكنى أبا أحمد قال: (كنت مع أبي عبد الله «عليه السلام» في الطواف ويده في يدي، إذ عرض لي رجل إلي حاجة) ولعل كلمة له ساقطة من العبارة (فأومأت إليه بيدي، فقلت له: كما أنت حتى أفرغ من طوافي. فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: ما هذا؟ فقلت: أصلحك الله رجل جاءني في

(١) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٩٥.

حاجة، فقال لي: أ مسلم هو؟ قلت: نعم فقال لي: اذهب معه في حاجته، فقلت له: أصلحك الله فأقطع الطواف؟ قال: نعم، قلت: وإن كنت في المفروض؟ قال: نعم وإن كنت في المفروض^(١).

لاحظ تعجّب الرجل من جواب الإمام، لماذا؟ لأن المفروض أن هذا طواف حول بيت الله وعمل عبادي وثوابه أعظم من كثير من أعمالنا الأخرى، ولأنه قد يكون واجباً بلحاظ أنه جزء من عمرة أو حج، فكيف يقطعه ليذهب لأمر يمكن أدائه لاحقاً؟ بالطبع الفرض أن الطواف أيضاً موسّع. ولكن البعد الأخلاقي حاضر هنا، كما هو حاضر في رواية الكليني بالسند عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: كنت أطوف وسفيان الثوري وسفيان «٩٧ هـ - ١٦١ هـ» فقيه كوفي، وأحد أعلام الزهد عند المسلمين، وإمام من أئمة الحديث النبوي، وواحد من تابعي التابعين، وصاحب إحدى المذاهب الإسلامية المندثرة، والذي ظل مذهبه متداولاً حتى القرن السابع الهجري، قال

(١) الكليني: الكافي، ج٤، ص٤١٤.



عنه الذهبي: «هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع»، كما قال عنه بشر الحافي: «سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما». (قريب مني، فقال: يا أبا عبد الله كيف كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يصنع بالحجر إذا انتهى إليه؟ فقلت: كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يستلمه في كل طواف فريضة ونافلة، قال: فتخلف عني قليلا: فلما انتهيت إلى الحجر جزت ومشيت فلم أستلمه، فلحقني فقال: يا أبا عبد الله ألم تخبرني أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان يستلم الحجر في كل طواف فريضة ونافلة؟ قلت: بلى، فقال: قد مررت به فلم تستلم؟ فقلت: إن الناس كانوا يرون لرسول الله «صلى الله عليه وآله» ما لا يرون لي، وكان إذا انتهى إلى الحجر أفرجوا له حتى يستلمه وإني أكره الزحام»^(١).

بالطبع هناك روايات أخرى تتحدث عن تفضيل الحج على الصدقة، ولكن يبدو لي أنها في مقام الرد على تهاون

(١) الكليني: الكافي، ج ٤، ص ٤٠٥.



البعض بشأن الحج وتكاسلهم عن ذلك، فجاء الجواب رداً على هذه النوعية من الناس، لا مطلقاً، وهذا ما يظهر من الرواية التالية التي رواها الشيخ الطوسي بالسند عن أبي عبد الله «عليه السلام»، عن أبيه، عن آبائه «عليهم السلام»: (أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لقاه أعرابي فقال له: يا رسول الله إني خرجت أريد الحج ففاتني وأنا رجل مميل، فمرني أن أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحاج، فالتفت إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال: انظر إلي أبي قبيس فلو أن أبا قبيس لك ذهبه حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت به ما يبلغ الحاج....)^(١). ومثل هذا التعارض بين الروايات التي تبين ما هو الأهم مشهود ومتكرر، وهذا لا يعني بالضرورة أن بعضها مكذوب أو محرّف، بل قد يكون أننا غفلنا عن سبب الصدور، أو الظرف المحيط بالحدث، أو الخلل الذي يريد النبي أو الإمام معالجته من خلال إجابته أو بيانه.

وكل ما سبق يفرض علينا فهم رؤية الإسلام للقيمة الأخلاقية للسلوك ومستوياتها.

(١) الطوسي: تهذيب الأحكام، ج ٥، ص ١٩.



• مرجحات متعددة:

نتنقل الآن لعرض بعض المرجحات، سوى الترجيح بالأهمية، ومن بينها:

(١) تقديم المضيّق على الموسع: فعندما يقع التزام بين واجبين، أحدهما مضيّق والآخر موسّع، كان الترجيح على أساس سعة الوقت وضيقه لا على أساس الأهمية. فما يمكن تأجيله لا يقدّم على ما لا يمكن تأجيله.

مثال ١: ما لو كنت مكلفاً بصلاة الظهر، وأمامي ثلاث ساعات لأدائها، ولكن يجب عليّ الآن أن أذهب إلى المطار وأودّي دين شخص سيسافر بعد قليل، بحيث أنني لو أدت الصلاة وذهبت إليه بعد ذلك، سيفوتني، فأيهما أقدم؟ لا شك أن أداء الدين في هذه الحالة مقدّم على أداء الصلاة على ما للصلاة من أهمية.

مثال ٢: عندما يقع التزام بين أداء الصلاة الفريضة مع سعة الوقت، وبين أمر آخر واجب ولكنه أقل أهمية منها، من قبيل غسل الميت، إلا أن وقت هذا الواجب مضيّق بحيث



أنني لو لم أغسله الآن فسيقوم بذلك شخص لا يعرف الأحكام، وسيُدفن الميت بشكل خاطيء. من الواضح أن الصلاة المفروضة أهم من غسل الميت، ولكن نتيجة سعة الوقت فيها، وضيق الوقت في الثاني رجّحناه على الصلاة.

مثال ٣: إذا رأى نجاسة في المسجد وقد دخل وقت الصلاة تجب المبادرة إلى إزالتها، مقدّمًا التطهير على الصلاة مع سعة وقتها، على الرغم من أن الصلاة أهم من تطهير المسجد.

(٢) تقديم ما لا بديل له على ما له بديل: فمن أجل المحافظة على الواجبين وأدائهما بنحوٍ ما، نقدّم ما لا بديل له، ونأتي ببديل الآخر

مثال ١: ما لو لم أملك إلا ماء قليلاً جداً، وكان بدني نجساً وحانت الصلاة ولست على وضوء... فهل أتوضأ بهذا الماء وأصلي بالنجاسة، أم أطهر بدني وأتيمم؟ من الواضح أن المطلوب مني هو الاختيار الثاني.

ويمكن أن نستفيد مما سبق أن الخطاب الديني عليه أن يلاحظ إمكانات التوفيق بين الأغراض من حيث السعة

الزمانية والأفق الزماني، فثمة قضايا في عصرنا الحاضر لها أولوية وهي مقدّمة على ما سواها، والسبب في ذلك أن تأجيلها يؤدي إلى سلبيات كثيرة، فيما يمكن تأجيل قضايا أخرى لبحثها والاهتمام بها لاحقاً لأنها قابلة للتأجيل وليست على سلّم الأولويات.

فالقضايا التي تتمثل حالة طواريء تأخذ صفة الاستعجال، ويجب تقديمها والعناية بها على حساب قضايا أخرى ليست كذلك حالياً. وهذا واضح في وقت ارتفعت فيه الوتيرة الطائفية بقوة، حيث تأتي معالجة وطرح المسائل المتعلقة بالتكفير وحرمة الدماء ووحدة الصف وأمثال ذلك في مقام الأولوية على قضايا أخرى قد يكون من اللازم طرحها ولكنها ليست طارئة ويمكن تأجيلها إلى وقت آخر بعد أن تهدأ العاصفة وتعود الأمور إلى الحالة الطبيعية.

وهكذا فإن الحديث عن أولوية بناء مستشفى أو مدرسة أو دار للعجزة أو مصح لمعالجة المدمنين أو دار للأيتام في مدينة تتوافر فيها المساجد يكون منطقياً جداً ومتوافقاً مع هذه القاعدة. وقد تكون الصورة معكوسة، فحيث تتوافر



المدارس والمستشفيات ودور الرعاية، ونفقد المساجد، سيكون بناء المسجد أولى في سلم أولوياتنا في الإنفاق والمشاريع الخيرية.

وهكذا، فإن توفير التعليم العصري في بلاد مليئة بالتعليم الديني أولى من تأسيس مركز تعليم ديني آخر، والعكس صحيح.

والخلاصة أننا في خطابنا الديني وتوجيهاتنا لا يصح أن نأخذ خياراً واحداً ونتصور أنه الأولى على طول الخط، فهذه نظرة قاصرة، لأن للزمان والمكان تأثيراً في تقديم هذا على ذاك عند التزاحم، وعدم إدراك ذلك جعل أصحاب الرؤية التطويرية للأوقاف في هذا الزمان يعانون من ضيق أفق كثير من الناس، بسبب ضيق أفق الخطاب الديني أصلاً، حيث لا يرون مصداقاً للعمل الخيري الذي يدر ثواباً كثيراً وفي المرتبة الأولى إلا بناء المساجد، وهذا ليس دائماً صحيح.

والغريب أن المسلمين في أزمان سالفة كانت رؤيتهم للعمل الخيري والأوقاف والصدقات الجارية أكثر وعياً



بمراتب عما عليه الحال اليوم، ولذا يخبرنا التاريخ عن صور رائعة ومشرقة من صور ونماذج الأوقاف مما لا يخطر على بال أحد اليوم، بل حتى لو خطر على باله اعتُبر سفيهاً!

الرحالة ابن بطوطة وقف منبهرًا بما رآه في أوقاف دمشق في القرن الثامن الهجري فقال: (والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها؛ فمنها أوقافٌ على العاجزين عن الحجِّ، يُعطى لمن يحجّ عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنَّ، وهنَّ اللواتي لا قدرة لأهلهنَّ على تجهيزهنَّ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل؛ يُعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها)^(١).

ويروي أيضاً حادثة مؤثرة عاينها بنفسه: (مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني، وهم يُسمّونها الصّحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، ص ٤٧.



شَقَّفَهَا، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها،
 وذهب الرجل معه إليه، فأراه إيَّاهَا، فدفع له ما اشترى به
 مثلَ ذلك الصحن... فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى
 الله خيراً مَنْ تسامت همَّته في الخير إلى مثل هذا^(١).

وكان المسلمون يُدعون في أوقافهم، يقول ابن بطوطة
 أن الواقف كان يذكر في نصِّ الوقفية وجوب تقديم طعام كلِّ
 مريض في إناء مستقلٍّ خاصٍّ به، ووجوب تغطيتها وإيصالها
 إلى المريض بهذا الشكل، وقد خُصَّص في البيمارستانات
 -المستشفيات- قاعات مستقلة للمؤرَّقين من المرضى؛
 إذ كانوا يُعزلون فيها، فيُشَنَّفون آذانهم بسماع الأناشيد،
 والاستماع إلى القصص حتى يغلبهم النوم!

وفي مدينة طرابلس اللبنانية كان ربع إحدى الأوقاف
 مخصَّصاً لتوظيف اثنين يمرَّان في المستشفيات يومياً؛
 فيتحدَّثان بجانب المرضى حديثاً خافئاً؛ لِيَسْمَعَهُ المريض
 بما يوحي له بتحسُّن حالته، واحمرار وجهه، وبريق عينيه!

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،
 ج ١، ص ٤٨.

وخلاصة هاتين القاعدتين أن المنطق العقلاني لإدارة الأمور يفرض علينا التفكير بالمستعجل، كما يفرض علينا التفكير بما ليس له بدائل متوفرة.

٣) تقديم مصلحة الجماعة على الفرد والأكثرية على الأقلية: وهذا المرجح سليم، وقد يعتبره البعض حلاً للمعضلة الأخلاقية المرتبطة للخيار بين صدم القطار لخمسـة عمال على سكة الحديد أو لفرد لا دخل له بالحادث... ولكن الحقيقة أن من الخطأ تعميم هذا المرجح، ومن ذلك تطبيقه على مورد حادث القطار، حيث أن الخمسة مسببون لما سيحدث، بينما ذلك الفرد لا شأن له، وأخلاقياً لا يصح أن نجعله يدفع ثمن خطأ الآخرين. ولذا نقول أن مصلحة الفرد قد تكون أحياناً أهم من المصلحة العامة، ولنأخذ هذا المثال: من المصلحة العامة توسعة الطريق، ولكن لو أدى هذا المشروع إلى الاضطرار لقتل إنسان محترم الدم، فهل نقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد؟ كلا، لأن حرمة دم الفرد أكبر هنا من المصلحة العامة.

ومن هنا لا يصح أن نقول أن قاعدة تقديم مصلحة

الأكثرية على الأقلية تستدعي أن نرفع جهاز التنفس الصناعي عن رجل يحتاج إليه مدة طويلة ليتعالج، وإذا رفعناه عنه سيموت، ليستفيد منه خمسة بإمكانهم الشفاء في نفس مدة علاج المريض الأول، أو أننا نرفع الجهاز عن كبير السن ليتعالج به خمسة من الشباب، لأن هذه القاعدة لا تجري دائماً، بل يجب أن نلاحظ معها معايير أخرى. وفي المقابل قد يكون التضحية بالنفس وأن يختار الإنسان الموت بما يحقق المصلحة العامة أو بما يعود على الدين بالفائدة العظمى أمراً محبوباً بل لازماً، ومقدماً على حفظ النفس. وهذا ما اختاره القاسم بن الحسن في يوم الطف.

• القاسم يرجح الموت:

روى الطبري عن حميد بن مسلم قال: (خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر في يده السيف عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى فقال لي: عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي: والله لأشدن عليه! فقلت له: سبحان الله، وما تريد إلى ذلك؟ يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. قال: فقال: والله لأشدن عليه، فشدّ



عليه، فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف فوق الغلام لوجهه فقال: يا عماء. قال: فجلى الحسين كما يجلي الصقر) أي رفع رأسه ثم نظر (ثم شد شدة ليث أغضب، ف ضرب عمراً بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تنحى عنه، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين، فاستقبلت عمراً بصدورها فحرّكت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه، فتوطأت حتى مات. وانجلت الغبرة فإذا أنا بالحسين قائم على رأس الغلام والغلام يفحص برجليه، وحسين يقول: بعد قوم قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفحك، صوت والله كثر واتره وقلّ ناصره. ثم احتمله فكأنني أنظر إلى رجلي الغلام يخطان في الأرض وقد وضع حسين صدره على صدره، قال: فقلت في نفسي: ما يصنع به؟ فجاء به حتى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين وقتلى قد قُتلت حوله من أهله بيته. فسألت عن الغلام فقيل: هو القاسم ابن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣١.



العزة



الوضع الطبيعي والعقلاني للإنسان أن يشعر بالعزة من جهة، وأن يسعى للحفاظ على كرامته من جهة أخرى. وقد ذكر علماء النفس أن إحساس المرء بعزّة نفسه، أي أن يشعر بأنّه عزيزاً محترماً في ذاته وعند غيره من موجبات

سعادته، وفي المقابل، فإنَّ شعوره بالذَّلة والهوان وحقارة نفسه، يجلب له الشعور بالتعاسة والشقاء.

العزة والكرامة هبة الله الخالق «عز وجل»، وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)، وليس من حق الفرد أن يتنازل عن هذه الهبة الإلهية. ومن هنا نجد أن المجتمعات البشرية تحتقر وتستغرب سلوك مَنْ يهين نفسه، ويتصرّف بصورة تدل على الضُّعة والاحتقار للذات، إلا إذا كان مثل هذا التصرف ناشئاً عن سبب وجيه. مثال ذلك مَنْ يدخل السلك العسكري وهو يعلم أنه سيتعرّض لمواقف أثناء التدريب تجعله يتنازل عن شئ من كرامته وعزة نفسه، ففي مثل هذه الحالة لا يكون مُلاماً ومحتقراً من قبل المجتمع.

وفي القرآن الكريم توجيه صريح إلى أن العزة إنما تكون ممدوحة إذا كانت في مكانها المناسب، فمن جهة يقول «عز وجل»: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، ومن جهة أخرى

(١) سورة الإسراء: ٧٠.

(٢) سورة المنافقون: ٨.



يقول «عز وجل»: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١).

ونلاحظ كيف يصف الإمام زين العابدين «عليه السلام» هذه الحالة في دعائه لوالديه: (اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف وأبرهما بر الأم الرؤوف.... اللهم خفض لهما صوتي، وأطب لهما كلامي، وألن لهما عريكتي وأعطف عليهما قلبي، وصيرني بهما رفيقاً، وعليهما شقيقاً....)^(٢).

إذا أردنا أن نقيّم هذه الحالة من منظور فردي شخصي، فهي ليست سوى تنازل عن الشعور بالعِزّة، وليست في صورتها الظاهرية إلا تنازل عن الكرامة الشخصية.. ولكنها في عمق الصورة، وبمنظرة شمولية بعيدة عن النظرة الفردية الضيقة، ليست إلا رفعة وعزة وكرامة حقيقية. والسبب أن هذا التنازل هنا:

(١) سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

(٢) الإمام زين العابدين: الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٤.

١. يتم عن إرادة وقناعة، وليس تحت الضغط.

٢. مرتبط بقيمة أخلاقية أعلى وهي بر الوالدين.

٣. يحقق نتائج مهمة على صعيد الأسرة، حيث يحقق لها عزتها وقوتها وتلاحمها وتراحمها وكرامتها، ويحقق للمجتمع ككل -من خلال قوة الأسر باعتبارها الوحدات الاجتماعية الصغيرة المؤلفة للمجتمع- العزة والقوة والتلاحم والتراحم والكرامة.

من هنا نفهم أيضاً مغزى قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعضو، فإن العضو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يُعزِّكم الله) ^(١)، وفي رواية أخرى: (من عفا عن مَظْلَمَةٍ، أبدله الله بها عزاً في الدنيا والآخرة) ^(٢).

• الإمام الصادق وابن الحسن:

وفي الكافي بالسند عن صفوان الجمال رواية عن خصومة ومشادة كلامية وقعت بين الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» وبين عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٠١٣.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٠١٣.

المجتبي، والمسألة بحسب الظاهر ترتبط بجعل ابنه محمد بن عبد الله المعروف بذي النفس الزكية قائداً للثورة على الأمويين والخليفة المرتقب بعد سقوط الدولة الأموية. فقد التقى الجناح الحسن بن علي «عليه السلام» مع أحفاد عبد الله بن عباس من أجل التنسيق والإطاحة بحكم الأمويين، وكان الشعار المرفوع من قبلهم هو «الرضا من آل محمد»، وكان الناس يميلون إلى آل علي وتتصرف أذهانهم إليهم عند النداء بمثل هذا الشعار، وإليها كانت تنصب توقعاتهم وتطلعاتهم لمن سيكون البديل الأنسب للخلافة بعد سقوط الأمويين، لما عرفوه عنهم من تقى وخصال حميدة وتضحيات ووصايا نبوية وغير ذلك. وعند عقد الاجتماع تم الاتفاق على جعل القيادة لمحمد بن عبد الله، والترويج على أنه هو المهدي الذي بشر النبي «صلى الله عليه وآله» بظهوره، ولم يكن محمد ذو النفس الزكية شخصية عادية، وقد ذكر الأصفهاني في «مقاتل الطالبين» أنه كان: (من أفضل أهل بيته، وأكبر أهل زمانه في زمانه في علمه بكتاب الله وحفظه له وفقهه في الدين وشجاعته وجوده وبأسه وكل

أمر يَجْمَلُ بِمِثْلِهِ، حتَّى لَمْ يَشْكُ أَحَدٌ أَنَّهُ الْمَهْدِيُّ، وشَاعَ ذَلِكَ لَهُ فِي الْعَامَةِ، وبَايَعَهُ رِجَالٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ جَمِيعاً مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ، وَآلِ الْعَبَّاسِ، وَسَائِرِ بَنِي هَاشِمٍ..... وَخَرَجَتْ دَعَاةُ بَنِي هَاشِمٍ إِلَى النُّوَاحِي عِنْدَ مَقْتَلِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ، وَاخْتِلَافِ كَلِمَةِ بَنِي مَرْوَانَ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا يَظْهَرُونَهُ فَضْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَوَلَدِهِ وَمَا لِحَقِّهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْخَوْفِ وَالتَّشْرِيدِ) (١).

هكذا كان الأمر، وقد تم الطلب من الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» باعتباره أكبر وأبرز شخصية في الجناح الآخر من آل علي أن يبايع ويدخل في ضمن الاتفاق السابق، ولكنه لم يوافق. روى القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودة»: (فلما كان في أواخر دولة بني مروان وضعفهم، أراد بنو هاشم أن يبايعوا منهم من يقوم بالأمر، فأنفقوا على محمد وإبراهيم ابني عبد الله المحض، فلما اجتمعوا لذلك أرسلوا إلى جعفر الصادق. فقال عبد الله: إنه يُفسد أمركم. فلما دخل جعفر الصادق سألهم عن سبب اجتماعهم فأخبروه. فقال لعبد الله: يا ابن عمي إني لا أكتُم خيرية أحد من هذه

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص ١٥٨.

الأمّة إن استشارني، فكيف لا أدل على صلاحكم؟ فقال عبد الله: فمد يدك لنبايعك. قال جعفر: والله إنها ليست لي (ولا لابنك) أي ولديك (وإنها لصاحب القباء الأصفر، والله ليلعبن بها صبيانهم وغلمانهم. ثم نهض وخرج، وكان المنصور العباسي يومئذ حاضراً وعليه قباء أصفر، فكان كما قال)^(١). أي هكذا حصل فعلاً حيث انقلب العباسيون على الحسينيين، واستلموا الحكم وقتلوههم.

وهذا ما عناه الأصفهاني في روايته السابقة ولم يصرّح به حيث قال: (ثم ظهر من جعفر بن محمد قولٌ في أنه لا يملك، وأن المُلْك يكون في بني العباس) واعتبر الأصفهاني أن العباسيين لم يكونوا يفكرون في المُلْك وخيانة الاتفاق، ولكنهم لما سمعوا كلام الإمام الصادق تغيّرت نواياهم: (فانتبهوا من ذلك لأمر لم يكونوا يطمعون فيه).

عدم دخول الإمام الصادق «عليه السلام» في الاتفاق، ورفضه البيعة، أثار غضب عبد الله بن الحسن، وأدى ذلك لاحقاً إلى وقوع تلك المشادة الكلامية التي كنا نتحدث

(١) القندوزي: ينابيع المودة، ج ٢، ص ٥٠.

عنها، والتي يقول فيها الراوي: (حتى وقعت الضوضاء بينهم واجتمع الناس. فافترقا عشيتهما بذلك، وغدوت في حاجة فإذا أنا بأبي عبد الله «عليه السلام» على باب عبد الله بن الحسن وهو يقول: يا جارية، قل لي لأبي محمد. قال: فخرج، فقال: يا أبا عبد الله، ما بكر بك؟ قال: إني تلوت آية في كتاب الله «عز وجل» البارحة فأقلقنتني. فقال: وما هي؟ قال: قول الله «عز وجل ذكره»: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(١). فقال: صدقت، لكأنني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله قط، فاعتنقا وبكيا)^(٢). فالإمام الصادق «عليه السلام» لم يكن هو المخطيء في موقفه أو كلامه أو أسلوبه، ومع هذا وجد أن صلة الرحم، وإصلاح ذات البين، تستوجبان منه مثل هذه المبادرة، وهي من أسباب تحقيق العزة والكرامة للكيان الأسري والمجتمعي، فلم يتأخر عن ذلك، وإن كان في سلوكه هذا قد قدّم تنازلاً، ولكنه في الواقع حقق مكاسب كبيرة.

فإلى أي مدى نحن جعفريون، ومن شيعة جعفر الصادق

(١) سورة الرعد: ٢١.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ١٥٥.

عندما نوضع في مثل هذا الموقف؟ لا يكفي لكي أكون جعفرياً أن ألتزم بفقهِ جعفر «عليه السلام»، في الطهارة والصلاة والنكاح والطلاق.. بل أن يكون سلوكي العام أيضاً متناغماً مع سلوك الإمام جعفر الصادق، هذا هو المعنى الحقيقي للانتماء والولاء والمشايعة.

• التواضع والعزة:

وعليه فإن التنازل عن العزة في الموضع الصحيح في مثل أن يبادر الإنسان إلى طلب العفو من أخيه المؤمن، وإصلاح ذات البين، وإن لم يكن هو المخطيء أمر محبوب عند الله، ومن أسباب ارتفاع قيمة الإنسان عند ربه، وأن يرفعه الله «عز وجل» بين الناس من حيث لا يدري.

والتواضع في حد ذاته تنازل عن شيء من عزة النفس، فقد تملك من المكانة الاجتماعية أو العلم أو السن أو المال ما يميّزك ويرفعك على الطرف الآخر، ولكن مع هذا تخدمه إذا زارك أو طلب منك شيئاً، وتتودد إليه، وتتكلم معه دون أن تُشعره بأنه أعلى منه مستوى، بل لربما تشعره بعكس ذلك، كلها من صور التواضع.



روى المجلسي أنه: (دخل ضرار بن ضمرة على معاوية فقال له: صف لي علياً. فقال له: أو تعفيني من ذلك، فقال: لا أعفيك، فقال: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتتطف الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، ويناجي ربه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب).

شخصية بمثل هذا الوصف وهذه الامتيازات قد يترفع ويرى نفسه أعلى من الآخرين، إما لما يملكه من علم أو حكمة أو زهد أو كثرة عبادة، ولكن لاحظ ما قاله ضرار بعد ذلك: (كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألناه، وكنا مع دنوه منا وقربنا منه لا نكلمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته)^(١). أي أنه في عين ما كان يملكه من امتيازات لم يترفع بها على أحد، بل كان فيهم كأحدهم، وهو تعبير مختصر ورائع جداً.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ١٥٦.



من هنا امتدح الله «عز وجل» المؤمنين كالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

عندما تعيش هذه الحالة فإن ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾.. أي نعمة عظيمة من الله، وقد وفقت لها، وهي لا تتحقق لكل أحد.. بل تتحقق لمن يحبهم الله ويحبونه.

• التنازل القبيح:

والإنسان لا يتنازل عن عزته وكرامته أمام الناس فقط، فقد يتنازل عنها في مقابل شهوة أو ولذة عابرة أو مال أو منصب. وقد سُئِلَ عليّ «عليه السلام» يوماً: (أي ذلّ أذلّ؟ فقال: الحرص على الدنيا)^(٢).

فمن يحرص على الدنيا ويقبل عليها إقبال جائع جشع نهم طمّاع، وكلّ همّه اكتناز المال، أو إشباع شهوته بصورة أو

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٧٧.



بأخرى، أو الحصول على منصب بأي ثمن، يكون ذليلاً لها، بمعنى أنه يكون مستعداً -في بعض المواقف- لأن يفعل أي شيء مهما كان قبيحاً أو محرماً أو لا يتناسب مع شخصيته أو ممنوعاً قانوناً أو بالنفاق والتزلف والكذب، كل ذلك من أجل أن يحصل على مراده. الصورة بشعة ومقرزة ولكنها مشهودة على طول الخط، وفي كل المستويات.

الشباب عندما يتعاطون المخدرات ويتحولون إلى مندمنين يصبحون عبيداً أذلاء لهذه السموم، ويكونون على استعداد لفعل أي شيء قد يصل إلى حد قتل أقرب المقربين إليهم أو بيع أنفسهم لتلبية شهوات الآخرين وبأحط صورة في مقابل الحصول على جرعة مخدر.

الشباب عندما يتقافزون أمام فتاة جميلة وكلُّ منهم يحاول أن يُظهر عضلاته، أو مهاراته الفنية أو الرياضية، أو جمال خصلات شعره المصبوغ، أو ثرائه، هذا نوع من العبودية للشهوة وإذلال للنفس وإسقاط لها أمام غريزة زائلة... نفس هذا الشاب بعد أن يناله حظوته ويطفئ غريزته بالقدر الكافي من هذه الفتاة يغير رقم موبايله



ويتهرب منها، ولربما يحوّلها إلى أحد أصحابه... هذه قمة المهانة للنفس البشرية.

بعض المرشحين للانتخابات لنيل كرسي التمثيل في مجلس من المجالس العامة، يبيعون كراماتهم ويتنازلون عن عزة النفس، ويكونون على استعداد لفعل أي شيء، تقديم رشى... نيل رضا المافيات... التزلف الكاذب للناخبين... إطلاق الوعود المخادعة... بيع المواقف لأصحاب المال والسلطة... إلخ القائمة... المهم عندهم الفوز بهذا الكرسي. هذه قمة المهانة للنفس البشرية. ولأثرة الأذلاء تطول؛ وأما مصير من يطلب الكرامة والعزة عند غير الله «عز وجل» فكالتالي: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(١). وفي الدعاء: (فكم يا إلهي من أناس طلبوا العزة بغيرك فذلّوا)^(٢).

• العزة بين الزوجين:

وقد يعيش المؤمنون -من الجنسين- مثل هذه القيم

(١) سورة مريم: ٨١-٨٢.

(٢) الإمام زين العابدين: الصحيفة السجادية، الدعاء ٧٤.

الأخلاقية السلوكية الإيجابية مع أصدقائهم وأقربائهم أحياناً، ولكنهم ينسون أو يغفلون أو يتغافلون عنها عندما يتعلق الأمر بشريك الحياة.. الزوج تجاه زوجته، والزوجة تجاه زوجها. وهذا ملاحظ، وهو أمر غريب، لأن من المفترض أن تكون العلاقة الزوجية عاملاً وعنواناً إضافياً لمزيد من الحرص على أعمال مثل هذه القيم. فإذا كان المؤمن أخاً في الله، فعامَلته وفق ذلك المعيار من العفو والتسامح والمبادرة بالاعتذار، وتعاليت على كبريائك، وتغافلت عن عزة نفسك وكرامتها، انسجماً مع التعاليم الإسلامية في ما له علاقة بحقوق الأخوة، ورغبة في استمرار العلاقة بينكما، فإن ما يجمع الزوج بزوجته، والزوجة بزوجها أكثر من ذلك، لأن عنوان الزوجية لم يبلغ حقوق الأخوة بالله فيما بينهما.

وما جاء -مثلاً- في سورة الحجرات من الآية العاشرة إلى الثانية عشرة من تعاليم تُنظّم العلاقة الأخوية الإيمانية بالإصلاح، وعدم السخرية، وعدم اللمز والتنازع بالألقاب، واجتناب الكثير من الظن، وعدم التجسس، وعدم الاغتيال، ورعاية تقوى الله في العلاقة، كل هذه العناوين تبقى قائمة



بين الزوجين.. بل هي أولى فيما بينهما مما لو كانت مع أخيك أو أختك في الله.

العلاقة الزوجية كغيرها من العلاقات الإنسانية، معرضة لوقوع المشاحنات والمشاجرات، وقد تتأزم الأوضاع بين الزوجين، وقد تصل إلى مرحلة حرجة.. وتأتي مسألة الكرامة والعزة كواحدة من عوائق المبادرة للمصالحة وتجاوز الخلافات.

فالمرأة تشعر بأن إقدامها على هذه الخطوة فيه انتقاص من كرامتها، وتجاوز على أنوثتها، لأن من المفترض أن تكون المبادرة بالاهتمام والدلال صادرة عن الرجل. وفي المقابل، فإن الرجل يشعر بأن ذكوريته وقوامته على الأسرة وشخصيته لا تسمح له بالتذلل للفرد الأضعف في التركيبة الأسرية، خاصة وأن كلمته يجب أن تكون هي المسموعة، وعلى الزوجة أن تطيعه، لا أن تناقشه وتخالف أوامره.

ولكن المصلحة العليا -وهي المحافظة على الأسرة والحالة الزوجية والميثاق الغليظ- تفرض عدم الاعتناء بكل هذا، وتجاوز العزة الكاذبة، والكبرياء في غير محله.. فرب

العزة الذي نظم العلاقات الإنسانية يريد من الطرفين أن يضعوا كل شئ في موضعه.. هذه هي الحكمة.

الحكمة في أن يبادر أحدهما بتجاوز المشكلة.. بالاعتذار بطريقة ما.. أن يكون شجاعاً بما فيه الكفاية لطرح الحلول الناجعة، وعلى الآخر أن يقبل ذلك الاعتذار ويقدر له هذه المبادرة. طبعاً أنا لا أدعو إلى أن يتحمل طرف واحد مسؤولية الاعتذار والتنازل على طول الخط، وإن كان الآخر مخطئاً، بل أن تكون المبادرة منطلقاً من الإحساس بالمسؤولية والمودة والرحمة.

المكابرة في الخلافات الزوجية، والإصرار على استمرارها، بذريعة الحفاظ على عزة النفس، والكرامة الشخصية، لن تصنع إلا بيتاً تقيساً، وبيئة مشحونة بالصراعات، وأسرة مفككة، وخلافات مستمرة، وقد أخبر الله عز وجل عن شأن بعض الطغاة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(١)، أي أن عزته الكاذبة الناشئة عن روحية الطفيلان حملته على المكابرة على الاعتراف بارتكاب الإثم المنهي عنه، وأغرته



بالاستمرار على ارتكابه، وإن كان في قرارة نفسه يدرك الحقيقة، وأن الخير في الاعتراف وتصحيح الموقف.

ومن الممكن أن يتحوّل الزوج إلى طاغوت في بيته، وأن تصبح الزوجة طاغوتاً في إطار الأسرة، ومفتاح ذلك أن تأخذهما العزة الكاذبة والتشدّق بالكرامة نحو تدمير رابط الزوجية من خلال الإصرار على الموقف، والمكابرة على الخطأ، والتعالي على التسامح، من دون مبرر حقيقي يستدعي ذلك، ولنستذكر من جديد قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يُعزّكم الله) ^(١).

• من أسباب الذل:

وأحياناً تكون الحالة النفسية غير المتزنة سبباً لإذلال الإنسان، وقد روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» أنه قال: (النّاس من خوف الذلّ في ذلّ) ^(٢)، أي يذل نفسه للآخرين خوفاً من أن يذلّوه، فيستجيب لأوامرهم بصورة عمياء،

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٠١٣.

(٢) بني بكر: موسوعة نور الحكمة، ص١٦.



ويسكت على حقه الذي اغتصبوه، ويتحوّل إلى خادم لهم، والواقع أنه هو الذي هوّل صورتهن وضخّمها، ولو أنه تشجّع وامتلكت الجرأة في الكلمة والموقف لربما قضى على هذه الحالة النفسية المهينة له.

الخوف من المهانة يجعلك تقدّم التنازل تلو التنازل. أمّا إذا ذهبنا في الاتجاه الآخر، وفَتّشنا في قاموس الناجحين، والمجاهدين، والكادحين، والسّاعين في دروب الحياة، حتّى من أجل لقمة خبز، فلن تجد بينهم من كان ذليلاً، لن تجد بينهم إلا من كان مرفوع الهامة والرأس.

• العزة في طريق نصره الحسين:

إنّ الذلّ يُطفئُ الهمة، والإرادة، والعزة، والطّموح، والإحساس بالكرامة والمسؤوليّة، تماماً كما يُطفئُ الماء النّارَ ويُخمدها. وإنّ أسوأ حالات الانهيار النفسيّ، هي تلك التي لا يشعر فيها الإنسان بكرامته، وبقيّمته كإنسان يستحقّ أن يحظى بالعيش الكريم. وهي الحقيقة التي آمن بها أهل بيت الحسين «عليه السلام» وأنصاره الذين ثبتوا معه طوال الطريق، وأبوا إلا أن ينصروه في ساعة المواجهة.. الحقيقة

التي رآها علي الأكبر بعين البصيرة، وأطلقها بعبارات جليلة في حوارهِ مع أبيهِ وهم يقطعون الصحراء في طريقهم نحو المصير المحتوم. ففي تاريخ الطبري عن عُقبة بن سَمعان قال: (لما كان في آخر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء ثم أَمَرنا بالرحيل ففعلنا. قال فلما ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرنا ساعة خفق الحسين برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين. قال: ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً قال: فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، يا أبت، جُعِلت فداك، مِمَّ حمدتَ الله واسترجعت؟ قال: يا بني، إِنِّي خَفَقْتُ برَأْسي خَفَقَةً، فَعَنَّ لي فارس على فرس فقال: القوم يسرون والمنايا تسري إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نُعِيَتْ إلينا. قال له: يا أبت لا أراك الله سوءً. ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد. قال: يا أبت، إذاً لا نبالي، نموت محقّقين. فقال له: جزاك الله من ولد خير ما جرى ولداً عن والده)^(١).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٩.

وهي الحقيقة التي تجلّت في موقف علي الأكبر يوم
الطف، فكان أول شهيد من أهل بيت النبوة في ذلك اليوم،
روى الطبري عن زهير بن عبد الرحمن بن زهير الخثعمي
قال: (كان آخر من بقى مع الحسين من أصحابه سويد بن
عمرو بن أبي المطاع الخثعمي. قال: وكان أول قتيل من بني
أبي طالب يومئذ على الأكبر ابن الحسين بن علي، وأمه ليلى
ابنة أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي، وذلك أنه أخذ يشدّ
على الناس وهو يقول:

أنا علي بن حسين بن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي

تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

قال ففعل ذلك مراراً، فبصر به مرة بن منقذ بن النعمان
العبدى ثم الليثي فقال: عليّ أثم العرب إن مرّ بي يفعل مثل
ما كان يفعل إن لم أأكله أباه. فمرّ يشدّ على الناس بسيفه،
فاعترضه مرة بن منقذ فطعنه فصرع، واحتوله الناس
فقطعوه بأسيا فهم^(١).

ثم روى الطبري عن حميد بن مسلم الأزدي قال: (سماعٌ

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣١.



أذني يومئذ من الحسين يقول: قَتَلَ اللهُ قوماً قتلوك يا بنى،
ما أجزأهم على الرحمن وعلى انتهاك حُرمة الرسول! على
الدنيا بعدك العفاء^(١).

ويبدو أنه كان لهذا الحدث وقعٌ عظيم على العقيلة زينب
التي خرجت مسرعة -بحسب وصف حميد- وهي تنادي:
(يا أخياه ويا ابن أخاه. قال: فسألت عليها: فقبل هذه زينب
ابنة فاطمة ابنة رسول الله «صلى الله عليه وآله». فجاءت
حتى أكبّت عليه، فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردّها إلى
الفسطاط وأقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتیانهُ إليه، فقال:
احملوا أخاكم. فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي
الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه)^(٢).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣١.



الحسين وفتية عاشوراء



• المشهد الأول:

النورُ يسابقُ رسولَ الله في إطلاّته المعهودَة على
أصحابه، وخطاهُ تتسارعُ فرحاً وهو يحمل ريحانتيه...
(خرج علينا رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومعه الحسن

والحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة، وهذا مرة، حتى انتهى إلينا) هكذا روى بعض أصحابه وهم يجدون في عينيه سعادة لا يعرفونها إلا حين يكون وفي معيته ريحانتاه. فقال له رجلٌ من أصحابه: (يا رسول الله، إنك لتحبّهما؟) ...

يا سبحان الله! أي سؤال هذا؟ وكيف يُعرّف المعرّف؟ ولكنه -من دون تردّد- سؤال المُندهش من تلك المشاعر التي فاحَ عطرُها ولاحَ سناها في المكان... وقد عرفوا من رسول الله كلّ الجِدِّ، وروح المسؤولية التي تطفئ على شخصيته، وإن لم تفارقه ابتسامته الحانية قطّ وهي تمتزج مع صرامة الروح والعزم الشديد.

فما سرُّ تلك السعادة في تلك اللحظات التي تجمعهُ بسببِطيه، حتى أنهما ليجرّوان أن يصعدا على ظهره إذا صلى، ويرتقيان منبره وهو يعظُ الناس في عَفْوية الطفولة... فلا يستفزه ذلك، ويُطيلُ سجوده، ويتهلّل وجهه فرحاً لرؤيتهما، ويثني عليهما، ثم يطلب من الناس أن يشاركاه هذا الحب العميق، الذي لا يقف عند حدّ المشاعر، بل يمتزج مع روح

الدين، وصدق الإيمان... فحبُّهما من حبه، وبغضهما من بغضه، ولا يُبغضه «صلى الله عليه وآله» إلا منافق أو كافر.

ومن هنا كان جوابه لذلك السؤال الغريب جوابَ الناصح المنذر: (مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي)^(١). فالإيمان في وجهه منه تصديقٌ بالقلب وعملٌ بالجوارح، وهو في وجهه الآخر خَفَقَةُ قلب، وحركة مشاعر، فلا الروح تستقلُّ بالإيمان، ولا العقل ينفرد بالتصديق... وما قيمةُ اليقينِ إنْ لم يكن القلبُ دثاره، وما قيمةُ الحبِّ إنْ لم تعرف الجوارحُ مُشايعةَ المحبوب: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٢).

وما كان لأحد أن يدَّعي حُبَّ النبيِّ واتباعه وهو يُبغض سبطاه وريحانتاه من الدنيا، وهو القائل: (مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي)، تماماً كما قال ذلك من قبل في أمهما: (فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ أَحَبَّهَا فَقَدْ أَحَبَّنِي)^(٣)، وفي أبيهما القائل: (والذي فلق

(١) النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٤٧٧٧.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

(٣) ابن حجر: الصواعق المحرقة، ص ٢٨٩.

الحبة وبراً النسمة! إنه لعهد النبي الأمي «صلى الله عليه وآله» إليّ، أن لا يحببني إلا مؤمن، ولا يُبغضني إلا منافق» (١).

وتدور الأيام وتدور، وتترك بصماتها القاسية على قلب فاطمة وعليّ والحسين! ودّع النبي الدنيا الفانية ليلتحق بجوار الله... ولم تمض سوى أيام حتى التحقت به ابنته، تماماً كما أخبر النبي بذلك بضعته - من قبل - وهو على فراش الموت.

واجتمع الحسان -وأبوهما- في مشهد مريع ومتكرر، ليودّعوا بضعة رسول الله، بعد رسول الله، وكلمات عليّ تفيض حُزناً على حزن، وألماً على ألم: (السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك. قلّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري، ورقّ عنها تجلّدي..... إنا لله وإنا إليه راجعون. فلقد استرجعت الوديعه، وأخذت الرهينة. أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمُسَهَّد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم) (٢).

(١) مسلم: صحيح مسلم، ح ١٤٢.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٢.



• المشهد الثاني:

ثلاثٌ وخمسون سنة مضت منذ أن وقف بطل الإسلام..
 حيدرة.. خلفَ رسول الله في أوّل صلاة جمعته بخديجة وهو
 ثالثهما... حيدرة.. بطل الإسلام الذي طالما ارتفع سيفُهُ في
 وجه الكفر والباطل.. في سَحَرِ ليلةٍ من ليالي شهر رمضان
 غارقٌ في دمائه في المحراب.. وقد طالته يدُ الغدر الخارجية.
 فزتُ وربّ الكعبة... نداءٌ هزّ أركان الكوفة، وتراقصت
 له شياطينُ الجنّ والإنس فرحاً... لقد حقّق لها المرادي
 ما عجزَ عنه من قبلُ بنو عبد الدار والعامريّ ومرحّبٌ ومَن
 دونهم من رؤوس الشياطين... شلّت أيديهم! ما أجراهم
 على أبي الحسن!

في تلك اللحظة التي هوى فيها سيف المرادي، كتبت
 الأقدار بقلم القضاء المُبرم المحتوم: ما عاد لأيتام الكوفة
 أبٌّ يحنو عليهم... وما عاد لمظلومها أميرٌ يدافع عنهم...
 وما عاد لمساكين الأرضِ قلبٌ يخفقُ تألماً لآلامهم، وما عاد
 الناسُ يسمعون من صاحب القلب الكبير: (هيهات أن يغلبني
 هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطمعة، ولعل بالحجاز أو

اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو
أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكبادٌ حرى؟ أو أكون كما
قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القدِّ
أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم
في مكاره الدهر، أو أكونُ أسوةً لهم في جشوبة العيش،
فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همُّها
علفُها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكثرش من أعلافها وتلهو
عما يُراد بها، أو أترك سُدىً أو أهمل عابثاً، أو أجر حبل
الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة^(١)!

لقد هوى سيف المرادي بتلك الضربة المشئومة على
رأس كلِّ مسكين، وكلِّ يتيم، وكلِّ مظلوم... ورسم على
جدران بيوتهم بدم فتى الإسلام لوحة حزنٍ سرمديّة!

وحانت الساعات الأخيرة للفراق، وقد يمّم فتى الإسلام
وجهه إلى القبلة، وعلى رأسه الحسنان يكفكفان دموعهما
ويُلقيان عليه النظرات الأخيرة، ويستذكران موقفهما من

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

قبلُ مع رسولِ الله وبَضَعته الطاهرة، وأصغيا إليه في كلماته الأخيرة: (أوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شئٍ منها زوي عنكما. وقولا بالحق. واعملا للأجر. وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً... والله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم) أي صلوا أفواههم بالأطعام ولا تقطعوه عنها (ولا يضيعوا بحضرتكم. والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم. والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم. والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم. والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.... يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: إياكم والمثلة، ولو بالكلب العقور^(١).

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤٧.

إنها الفرصة الأخيرة التي يستطيع فيها الإنسان أن ينتقم فيها لنفسه أشد الانتقام، ويُفرغَ ما في قلبه لينصب الغضبُ على رأس الشيطان المرادي كعذاب الحميم، ولكنها الاستقامة العلوية في طاعة الله وطاعة رسوله التي تفرض عليه كظم الغيظ والانتصار للعدل.

وهدأت تلك الأنفاس الطاهرة... وخيم على المكان سكون الموت... واهتزت أركان الكوفة بنداء التوحيد حُزنًا على فقيدها الشهيد.

• المشهد الثالث:

علي.. يا فتى الإسلام.. حسينك.. ريحانة حبيبك.. فتاك الأبي.. يقف بين أصحابه.. في ساحة المعركة.. وقد لفهم الليل بوحشته.. وأضاء قلوبهم حب فتاك.. حسين.. بضعة حبيبك المصطفى.. وسيد شباب أهل الجنة.. وشتان ما بين موقف فتاك في كربلاء.. وموقفك يوم صفين.. آلاف مؤلفة من السيوف تتراقص تحت أشعة الشمس.. وحناجر أصحابك السُراة تُشدُّ رَجَزَ البطولات.. وتهتِفُ باسمك الذي ترتعد له فرائصُ الفتيان.. شتان بين ذا وذاك..



علي.. يا فتى الإسلام.. ألا ليت بضع مئآتٍ من أولئك
الرجال.. من همدان.. من مذحج.. من كندة.. بين يدي
حسينك.. ينتصرون لنداءاته.. ويهبّون لنجدة دين جدّه..
ألا هيهات.. لو ترك القطا ليلاً لنام.. وأنى له بمثل أولئك
الفتية؟! فقد عزّ الرجال.. ووضنّ بهم الزمان..

(أما بعد فإنني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من
أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ وأوصل من أهل بيتي، فجزاكم
الله عني جميعاً خيراً، ألا وإنني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء
غداً، ألا وأني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس
عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غَشِيَكُمْ فاتخذوه جَمَلاً، ثم
ليأخذ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، ثم تفرقوا في
سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني،
ولو قد أصابوني للهوا عن طلب غيري) (١).

جاءت كلماتُ فتى عليّ تقرّعُ طبولَ الحرب.. وتبتلي في
نفوسِ أصحابه - على قلّتهم - ثباتَ عزيمتهم.. وعلوّ همّتهم..
وصدق نبيّاتهم..

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٥.

وأجال فتى عليّ بناظريه يرمق حواربيّه.. ربّيون ما وهنوا
لما أصابهم في سبيل الله.. وما ضعفوا وما استكانوا.. تدورُ
ألسنتهم بذكر الله.. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا
وَتَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

ربّيون تعاقدوا ألا يُصعدوا إذا دعاهم داعي الله..
واستفزّهم الشيطانُ بخيله ورجله.. وأحاط بهم الموجُ من
فوقهم ومن أسفلَ منهم.. حين تزوغ أبصارُ الرجال.. وتبلغُ
القلوبُ الحناجر.. وتتزلزل الأقدامُ زلزالاً شديداً..

ربّيون أعطوه ميثاقاً غليظاً.. وسألهم عن صدقهم..
فصدقوا.. وما بدّلوا تبديلاً.. إنهم أنصارُ الله.. آمنوا
وأسلموا.. وأشهدوا بذلك ربّهم.. فهم فتية آمنوا بربهم
وزادهم هدىً وربط على قلوبهم وثبتّهم تثبيتاً..

بين أولئك الفتية الأبرار.. شيخٌ جاوز الثمانين قد اختطَّ
الزمنُ على جبينه ووجنتيه كلمات.. تُنبئُ عن كهلٍ كان
الجهادُ في سبيل العزة معلّم طريقه.. ودُمّه المداد الذي
كتب به أربابُ التاريخ قصة مجد المجاهدين.. كهلٌ لا ترى



في معالم كهولته إلا فتوةً تتفجر شموخاً.. وتتعالى على وهن
العمر.. وتضخُّ الإباء في جوارحه.

فتوةٌ يلفُّها خشوعُ اليقين.. وتواضعُ الإيمان.. وسكينةُ
الروح المطمئنة التي تترقّب ساعة الرجوع إلى ربِّها.. (نحن
نُخْلِ عنك، ولما نَعذر إلى الله في أداء حقك؟! أما والله
لا أبرح حتى أكرس في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي
ما ثبت قائمُهُ بيدي.. ولا أفارقك.. ولو لم يكن معي سلاح
أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك.. حتى أموت معك..
والله لا نخليكَ حتى يعلم الله أنا قد حفظنا عَيْبَةَ رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم فيك.. والله لو علمتُ أنني أُقتل ثم
أحيا ثم أُقتل ثم أُحرق ثم أُذرى.. يُفعل ذلك بي سبعين مرة
ما فارقتك حتى ألقى حِمامي دونك.. وكيف لا أفعل وإنما
هي قتلة واحدة.. ثم هي الكرامة العظمى التي لا انقضاء لها
أبدًا؟!)(^١)..

يا ملائكة الرب اشهدي أنصارَ حسين إلى الله.. فقد
صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. فإنهم فتيةٌ آمنوا بربهم

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣١٥-٣١٦.

وزادهم هدىً وربط على قلوبهم.. وثبتهم تثبيتاً..

وفي آخر القوم صبي يتناول بعنق أضاء دُجى ليلتهم
التي زاد ظلمتها أنفاس قوم احتوشوا الأبرار.. وأحاطوا بهم
يتطلعون إلى الساعة التي تبيح لهم سفك الدم الحرام..
أنفاس تنفثها قلوب ران عليها سوء ما اكتسبت.. وأنتن
ريحها خبث نواياها..

صبي يكاد يتلمس الحلم.. يتطلع ليجد لنفسه مكاناً بين
أولئك الفتية الذين أحاطوا بعمه.. دون أن يقل عنهم في
حلومهم.. (عماء!) وما نصيبي أنا من هدايا السماء؟)..

وانتزع فتى علي من شفثيه ابتسامة تفيض رحمة..
وتتقرن بشعور غريب يمتزج فيه الفخر بالعطف.. والعزة
بالخوف.. عزة عنوانها شموخ هذا العلوي.. وخوف على
وديعة أخيه الحسن الزكي.. آه يا أبا محمد.. ليتك حاضر
في هذا المشهد.. فتخفف عني ثقل أمانتك.. أأمسكه على
هون.. أم أقدمه فداءً للسماء؟!

انحنى فتى علي على ابن أخيه القاسم.. (قاسم أي
مُهجتي.. كيف الموت عندك يا بني؟)..
..



تمعن الصبي في عيني عمه.. وما فتئت حدقته
تتراقص فرحاً.. يا عم، كيف الموت عندي وأنا ابن فتى
الإسلام؟ أنا ابن من نادى جبريل باسمه هاتفاً: لا فتى إلا
علي.. أنا ابن من فرج الكرب عن وجه جدي رسول الله.. (يا
عم.. الموت عندي أحلى من العسل)..

يا جنة الخلد بشارك.. تزييني وتطيبني.. هذا ابن
الزكي يشواق للقياك.. أيتها الحور بشارك.. تهيني وأعدي
واستعدي.. فمعشوقك.. القاسم.. آت للقياك..

وبين ذلك الشيخ وهذا الفتى.. فتية آمنوا بربهم
وزادهم هدى وربط على قلوبهم.. وثبتهم تثبيتاً..

وعاد فتى علي يستقرئ غده.. بل غد أولئك الأشقياء
الذين يريد لهم آخرتهم.. ويريدون له دنياهم.. وشتان بين
ذا وذا.. فشبل علي ربيب محمد.. فتى قریش الذي صدح
بالحق هاتفاً (والله يا عم.. لو وضعوا الشمس في يميني
والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى
يظهره الله أو أهلك دونه) (١) ..

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٥٤.

وكانَّ الزمان يدور فيستقرّ بين يدي سبطه ليعرض له
 الأمر من جديد.. دنيا قريش.. أم جنة الرب؟! معادلة ولا
 أيسر منها.. سقط في شركها رجالٌ ورجال.. أمّا سليل
 النبوة فلا ينسى تمتات أبيه حيدرة (يا دنيا غري غيري..
 أبي تعرّضت أم إليّ اشتقت؟! هيهات قد باينتُك ثلاثاً لا
 رجعة لي فيك) (١).

وأغمض فتى عليّ عينيه.. وهوى إلى الأرض ساجداً..
 وأفاض من سكونه على ليلته سكونا.. سكونٌ خشت له
 النجوم.. وسبّحت معه الملائكة.. وخضعت له الأرض.. فلا
 تكاد تسمع إلا همساً.. وحملت الريح كلمات الرب تتلوها
 حناجر الصحب الأوفياء.. إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم
 هدىً وربط على قلوبهم.. وثبتهم تثبيتاً.

(اللهم أنت ثقتي في كل كرب. وأنت رجائي في كل شدة..
 وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة) (٢).. تراويل تصعد من
 شفتي فتى علي.. وهو يتقدم حتى وقف بأزاء جند الشيطان..

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٢٢٥.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٠٢.

فجعل ينظر إلى صفوفهم كأنهم السيل.. (تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً.. أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، شحذتم علينا سيفاً كان في أيماننا، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوكم وعدونا؟! فأصبحتم إلماً على أوليائكم ويداً عليهم لأعدائكم بغير عدل رأيتموه بثوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، ومن غير حدث كان مناً، ولا رأي يفيل فينا.. فهلا - لكم الويلات - إذ كرهتمونا تركتمونا والسيف مُشَيَّم والجأش طامن والرأي لم يستخف؟... ألا وإن البغي ابن البغي قد ركز بين اثنتين، بين السِّلَّة والذِّلَّة، وهيهات منا الذلَّة، أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وحُجُور طابت، وبطون طُهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيَّة، أن نوثر مصارع الكرام على ظار اللئام.. ألا واني زاحفٌ بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو وخذلان الناصر)^(١).

وجاء الجواب.. سهامٌ كأنها المطر.. تُمزقُ أحشاء السماء.. وتخرقُ صدورَ الأبرار.. الذين ما وهنوا وما ضَعُفُوا.. بل وتَدوا في الأرض أقدامهم.. وأعاروا الله

(١) ابن طاووس: الملهوف في قتلى الطفوف، ص ٥٩.

جَماعَهُمْ.. ونظروا إلى آخر القوم.. صلابَةً وإقداماً..

وتعالى نداءُ البراز بين الصفوف.. واصطكتْ الأسماع
من صريرِ كَلامِ السيوف.. وتطايرت الأيدي والأعناق..
وتهاوى جُنْدُ الشيطانِ إلى جحيمِ الأبدِ صرعى.. وتصاعدت
أرواحُ فتيةِ عاشوراءِ الواحدَ تلو الآخر.. حتى لم يبقَ مع فتى
عليٍّ أحدٌ.. تقدّمَ سيّدُ فتيةِ عاشوراءِ.. فاهتزّت الأرض من
وقع خطاه.. وامتلأت النفوس هولاً من كلماته^(١)..

أنا الحسينُ ابنُ عليٍّ أليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبي

وحمل فتى علي كاليث.. وجُنْدُ الشيطان تنكشف بين
يديهِ انكشاف المعزى إذا شُدَّ عليها.. وتنهزم فلولهُم بين
يديهِ كأنها الجراد المنتشر.. حتى أوقعَ فيهِم ما لا يُحتمل..
(الويلُ لكم.. أتدرون لمن تُقاتلون؟! هذا ابنُ الأنزعِ البطين..
هذا ابنُ قتالِ العرب.. فاحملوا عليه من كل جانب)^(٢)..

وبينا فتى عليٍّ يقاتل الأشقياء.. إذ شقَّ سهُمُ الخيانةِ

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٩.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٥٠.



جبهته.. فلم يُيال.. بل حَمَل عليهم كالليث المُغْضَب..
يُحَقِّقهم بأسلافهم.. ويسقي الأرض بدمائهم النجسة..

(يا أُمَّةَ السَّوءِ.. بِسْمَا خَلَفْتُمْ مُحَمَّدًا فِي عِثْرَتِهِ) (١)..
وهوى على رأسه حجر.. فجَرَّ ينبوع الطُّهر من جبهته..
فَأَخَذَ الثَّوبَ لِيَمْسَحَ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ.. فَأَتَاهُ سَهْمٌ تَلَّثَتْ
شُعْبُهُ.. وَشَقَّ طَرِيقَهُ نَحْوَ صَدْرِهِ.. حَتَّى اسْتَقَرَّ.. عَمِيقًا..
حَيْثُ قَلْبُ فَتَى عَلِيٍّ..

تَكَاثَفَتْ غِشَاوَةُ الدَّمِ عَلَى عَيْنِي سَيِّدِ الْفَتَيَانِ.. وَتَبَاطَأَتْ
خَفَقَاتُ قَلْبِهِ الزَّكِيِّ.. وَسَرَتْ بِرُودَةٍ فِي أَطْرَافِهِ.. وَاشْتَعَلَ
الْعَطَشُ فِي فَمِهِ.. وَخَارَتْ قَوَاهِ.. وَاحْتَضَنَ الصَّعِيدُ جَسَدَهُ..
فَمَلَأَ الْمَكَانَ مِنْ عِبْقِ الْجَنَّةِ.. وَأَجَالَ فَتَى عَلِيٍّ بِنَظَرِيهِ
حَوْلَهُ.. يَرْمُقُ أَصْحَابَهُ عَلَى الثَّرَى.. وَأَغْمَضَ عَيْنِيهِ وَصَدَى
كَلِمَاتِ الرَّبِّ تَتَهَادَى إِلَيْهِ.. **إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَادَهُمُ**
هُدًى وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ.. إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ...
السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد
الحسين وعلى أصحاب الحسين جميعاً ورحمة الله وبركاته.

وصايا - القسم الأول

للوصايا والعظات التي يقدمها الوالدان للأبناء قيمة وأهمية خاصة، وتأتي أحياناً كثيرة لتمثّل عصارة خبرات الإنسان في الحياة، وما ورث من حكمة من خلال آبائه.

وهذه هي سنة الأنبياء وأبناء الأنبياء، وقد نقل لنا القرآن الكريم أكثر من نموذج من هذه الوصايا، من بينها قوله «تعالى»: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

• وصايا لقمان:

وهكذا نجد في القرآن الكريم وصايا لقمان لابنه.. وقد وقع الخلاف في حقيقة هذه الشخصية. وقد ذكر القرطبي احتمالات عديدة أخذها من أسلافه من المفسرين والمؤرخين، وهي كالتالي:

١. ابن إسحق: لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح، والد النبي إبراهيم، أي هو حفيد أخي إبراهيم.

٢. السهيلي: لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نوبياً من أهل أيلة. والطريف أن أيلة هي العقبة، وهي في الأردن ولا

(١) سورة البقرة: ١٢٢-١٢٣.



علاقة لها بالنوبة التي تقع جنوب مصر في القارة الأفريقية.

٣. وهب بن منبه: كان ابن أخت أيوب.

٤. مقاتل بن سليمان: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب.

٥. الزمخشري: قيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود «عليه السلام» وأخذ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مبعث داود، فلما بُعث قطع الفتوى، فقليل له، فقال: ألا أكتفي إذ كُفيت.

٦. الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل.

٧. سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أي شفاه غليظة، أعطاه الله «تعالى» الحكمة، ومنعه النبوة. قال القرطبي معلقاً: وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان ولياً ولم يكن نبياً.

٨. عكرمة والشعبي: كان نبياً.

٩. القرطبي: الصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله «تعالى»، قاضياً في بني إسرائيل، أسود، مشقق الرجلين، ذا مشافر،

تعليق: لا يخفى ما في هذا الوصف من انعكاس لنظرة
تحقيقية بحق ذوي الأصول الأفريقية، والواقع أن القرآن
الكريم يؤكد على أن القيمة كل القيمة في التقوى، لا في العِقب
ولا في اللون ولا في الصفات الجسدية التي يرثها الإنسان
دون اختيار منه. ومن المؤسف والمخجل أن تصدر مثل هذه
الكلمات ممن يُقدّمون العلم والمعرفة الدينية للناس.

ثم أضاف القرطبي: وروي من حديث ابن عمر قال:
(سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: «لم يكن
لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين،
أحب الله «تعالى» فأحبه، فمَنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في
أن يجعله خليفة يحكم بالحق فقال: ربّ، إن خيرتني قبلتُ
العافية وتركت البلاء، وإن عزمْتَ عليّ فسمِعاً وطاعة فإنك
ستعصمني» ذكره ابن عطية.

تعليق: إلى هنا يمكن قبول الرواية، وهي تأتي في سياق
مقبول، ولكن فلنلاحظ كيف امتدت يد البعض لتضيف شيئاً
يخدم السلطان في ذلك الزمان!

قال القرطبي: وزاد الثعلبي: فقالت له الملائكة بصوت،

لا يَراهم: لَمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها، يغشاه المظلوم من كل مكان، إن يُعَنّ فبالْحَرَى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن في الدنيا ذليلاً فذلك خير من أن يكون فيها شريفاً. ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقته، فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها. ثم نودي داود بعده فقبلها -يعني الخلافة- ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهو في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمان يوازره بحكمته فقال له داود: طوبى لك يا لقمان! أعطيت الحكمة وصُرف عنك البلاء، وأُعطي داود الخلافة وأبْتُلي بالبلاء والفتنة.

تعليق: لا يخفى ما في هذه الزيادة من الدعوة لعدم المنافسة على السلطان، وعدم التدخّل في شئون الحكم، وقبول حالة الخنوع والذل لأنها أسلم للدنيا والآخرة! هذا الأمر يكشف خطورة مثل هذه الزيادات في الروايات، حيث لا تقتصر على تقديم معلومات خاطئة أو الوضع على لسان النبي، بل تتجاوز ذلك لتكون رافداً من روافد تكوين العقل

المسلم بالطريقة التي تُناسب السلطة الحاكمة أو المتنفذين وأصحاب بعض المصالح، أو إفساد عقول الناس وأخلاقهم، أو إحداث نوع من الربكة المعرفية في تصوراتهم حول الإسلام ومفاهيمه وتشريعاته.

١٠. وقال قتادة: خير الله «تعالى» لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة، فأتاه جبريل «عليه السلام» وهونائم، فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها فقيل له: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عَزَمَ لرجوت فيها العون منه، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إليّ.

ثم أضاف القرطبي: واختلف في صنعته فقيل: كان خياطاً. وقيل: كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمَه حطب. قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر: كان راعياً، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له: ألسنت عبد بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعنيني قاله.



قال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً فقال له سيده: اذبح لي شاة
وائتني بأطيبها مُضْغَتَيْن، فأثاه باللسان والقلب، فقال له: ما
كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبح شاة
أخرى ثم قال له: ألق أخبثها مضغتين، فألقى اللسان والقلب،
فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان
والقلب، وأمرتك أن تلقى أخبثها فألقيت اللسان والقلب؟!
فقال له ^(١): إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث
منهما إذا خبثا ^(٢).

لم أجد في كتب الشيعة ما يدل على تعيين شخصه سوى
ما نقل عن المصادر السنية. قال العلامة الطباطبائي:
(كلام في قصة لقمان.... لم يرد اسم لقمان في كلامه
«تعالى» إلا في سورة لقمان، ولم يذكر من قصصه إلا ما في
قوله عز من قائل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ^(٣)
وقد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة... ^(٤))

(١) مثل هذا المعنى مروى عن النبي.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٤١.

(٣) سورة لقمان: ١٢.

(٤) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٢٢١.

ثم ذكر العلامة بعضاً من هذه الروايات من مصادر سنية وشيعية وليس فيها شيء عن حقيقة هذه الشخصية.

اللافت هنا، أنه تم العثور على برديات تشتمل على وصايا أحد وزراء الدولة المصرية القديمة وهي قريبة جداً في مضمونها، بل وحتى بعض تعبيراتها مما جاء في النص القرآني من الوصايا. فقد كان للفرعون (جد كارع) والشهير بلقب (إيسيسي) أحد ملوك الأسرة الخامسة (حوالي: ٢٤١٤-٢٣٧٥ ق.م)، وزير كاهن اسمه أو لقبه (بتاح حتب). وفي بعض المصادر أنه كان عبداً في الأصل، كما قيل أن لقمان كان كذلك. تبدأ الوصايا والعظات، بتوضيح أن سبب كتابتها وصول كاتبها لسن الشيخوخة، ورغبته في نقل حكمة أسلافه، التي وصفها بأنها كلمات الآلهة لابنه (أخت حتب). واعتبر (ويل ديورانت) صاحب (قصة الحضارة) أنه يمكن اعتباره أول فيلسوف في العالم بحكم ما حصلنا عليه من بقايا المخطوطات السابقة في الفلسفة الأخلاقية.

وعلى العموم، فقد جاءت هذه الوصايا كصورة من صور شكره لله على الحكمة التي أوتيها، وكأنها نوع من زكاة

المعرفة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١) نتيجة هذه العطية الإلهية العظيمة قام لقمان بوصية ابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢). هذا يعني أن:

١. المعرفة والحكمة نعمة من نعم الله «تعالى»، والنعمة لكي تنمو وتزدهر وتستمر تحتاج إلى الشكر: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٣).
٢. من صور تزكية المعرفة والحكمة والشكر عليها: إيصالها للآخرين.
٣. ضرورة توريث المعرفة للأجيال القادمة.

• وصية الإمام علي للحسن:

ولذا نجد أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» يوصي ابنه الحسن وصية خاصة، كما أن هناك وصايا أخرى لولده، ولكن

(١) سورة لقمان: ١٢.

(٢) سورة لقمان: ١٣-١٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٧.

وصيته للحسن المنقولة في نهج البلاغة لها طابعها الخاص ومضامينها المميزة، وهي الكتاب الحادي والثلاثين في نهج البلاغة، والمعنون من قبل الشريف الرضي بأنها جاءت بعد عودة الإمام من صفين، وكأن الحدث الكبير كان ملهماً له لكي يذكرها لابنه الأكبر: (من الوالد الفان. المقر للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدهر. الذام للدنيا، الساكن مساكن الموتى. والظاعن عنها غدا. إلى المولود المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام ورهينة الأيام..... ووجدتك بعضي بل ووجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي فكتبت إليك كتابي مستظهِراً به إن أنا بقيت لك أو فنيته فإني أوصيك بتقوى الله أي بني ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله. وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به؟...^(١)). ووصلتنا وصايا بعض الأئمة «عليهم السلام» أيضاً لأولادهم.

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٣١.



• وصايا الإمام الحسين:

أما الحسين «عليه السلام» فنجد له الوصايا التالية:

١. هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية أن الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن ردّ على هذا أصبر حتى يقضى الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين. وهذه وصيتي يا أخي إليك، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. ثم طوى الحسين الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إلى أخيه محمد ثم ودّعه وخرج في جوف الليل^(١).

(١) العسكري: معالم المدرستين، ج ٣، ص ٥٠.

٢. وروى ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) وهو يتحدث عن أحداث التاسع وليلة العاشر من المحرم: (ثم نادى عمر بن سعد في الجيش: يا خيل الله اركبي وأبشري. فركبوا وزحفوا إليهم بعد صلاة العصر من يومئذ، هذا وحسين جالس أمام خيمته محتبياً بسيفه، ونعس فخفق برأسه، وسمعت أخته زينب الضجة فذنت منه فأيقظته، فرجع برأسه كما هو، وقال: إني رأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في المنام، فقال لي: «إنك تروح إلينا». فلطمت وجهها، وقالت: يا ويلتا. فقال ليس لك الويل يا أختي، اسكني رحمك الرحمن. وقال له أخوه العباس بن علي: يا أخي، جاءك القوم فقال: اذهب إليهم فسلهم ما بدا لهم) أي ما الجديد من أمرهم وماذا يريدون؟ (فذهب إليهم في نحو من عشرين فارساً فقال: ما لكم؟ فقالوا: جاء أمر الأمير، إما أن تأتوا على حكمه، وإما أن نقاتلكم. فقال: مكانكم حتى أذهب إلى أبي عبد الله فأعلمه. فرجع ووقف أصحابه، فجعلوا يتراجعون القول ويؤنب بعضهم بعضاً، يقول أصحاب الحسين: بنس القوم أنتم، تريدون قتل ذرية نبيكم «صلى



اللَّهُ عليه وسلم» وخيار الناس في زمانهم؟ ! ثم رجع العباس بن علي من عند الحسين إليهم، فقال لهم: يقول لكم أبو عبد الله: انصرفوا عشيتكم هذه حتى ينظر في أمره الليلة. فقال عمر بن سعد لشمر بن ذي الجوشن: ما تقول؟ فقال: أنت الأمير والرأي رأيك. فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي: سبحان الله! والله لو سألكم ذلك رجل من الديلم وهم سكان جنوب بحر قزوين، وكانوا من الكفار المحاربين الأشداء على المسلمين آنذاك (لكان ينبغي إجابته. وقال قيس بن الأشعث: أجبههم إلى ما سألوك، فلعمرى ليصبحنك بالقتال غدوة. وهكذا جرى الأمر، فإن الحسين لما رجع العباس قال له: ارجع فاردهم هذه العشية، لعننا نصلي لربنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره، فقد علم الله مني أنني أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، والاستغفار والدعاء. وأوصى الحسين في هذه الليلة إلى أهله^(١) ولم يذكر نص الوصية.

٣. وصيته لأخته زينب، ففي تاريخ الطبري ومصادر أخرى: عن علي بن الحسين بن علي «عليهم السلام» قال:

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٧٦.

(إني جالسٌ في تلك العشيّة التي قُتل أبي صبيحتَهَا وعمتي زينبٌ عندي تُمرضُني إذ اعتزلَ أبي بأصحابه في خباءٍ له وعنده حوى مولى أبي ذر الغفاري وهو يُعالج سيفه ويصلحُه وأبي يقولُ:

يَا دَهْرُ أَفْ لَكَ مِنْ خَلِيلٍ كَمْ لَكَ بِالْإِشْرَاقِ وَالْأَصِيلِ
مَنْ صَاحِبٌ أَوْ طَالِبٌ قَتِيلٍ وَالْدَهْرُ لَا يَقْنَعُ بِالْبَدِيلِ
وَأَنَّمَا الْأَمْرُ إِلَى الْجَلِيلِ وَكُلُّ حَيٍّ سَالِكِ السَّبِيلِ

قال : فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها ، فعرفتُ مَا أَرَادَ فَخَنَقْتَنِي عَبْرَتِي فَرَدَدْتُ دَمْعِي وَلَزِمْتُ السَّكُونُ فَعَلِمْتُ أَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ نَزَلَ ، فَأَمَّا عَمَّتِي فَإِنَّهَا سَمِعَتْ مَا سَمِعْتُ وَهِيَ امْرَأَةٌ وَفِي السَّمَاءِ الرَّقَّةُ وَالْجَزَعُ فَلَمْ تَمْلِكْ نَفْسَهَا أَنْ وَثَبَتْ تَجَرُّ ثَوْبَهَا وَإِنَّهَا لِحَاسِرَةٌ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : وَاشْكَلَاهُ لَيْتَ الْمَوْتَ أَعْدَمَنِي الْحَيَاةُ ، الْيَوْمَ مَاتَتْ فَاطِمَةُ أُمِّي وَعَلَيَّ أَبِي وَحَسَنُ أَخِي ، يَا خَلِيفَةَ الْمَاضِي وَثَمَالَ الْبَاقِي) أَيُّ بَقِيَّةِ الْبَاقِي (قال: فنظر إليها الحسين «رضي الله عنه» فقال: يا أخية، لا يذهبن حلمك الشيطان؛ قالت: بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله! استقلت نفسي فداك؛ فردَّ غصته، وترقرقت عيناه،

وقال: لو تُرك القطا ليلاً لنام. قالت: يا ويلتي، أفتغتصب نفسك اغتصاباً، فذلك أقرح لقلبي، وأشد على نفسي) ثم يصف الراوي كيف أنه أغمي عليها ثم قال: (فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء، وقال لها: يا أختي، اتقي الله وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالكٌ إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده، أبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة؛ قال: فعزاها بهذا ونحوه، وقال لها: يا أختي، إني أقسم عليك فأبري قسمي، لا تشقي علي جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت؛ قال: ثم جاء بها حتى أجلسها عندي^(١) أي عند الإمام زين العابدين.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٦٩-٢٧٠.

وصايا - القسم الثاني

مما روي من وصايا الإمام الكاظم «عليه السلام» لوُئِدِه:
(يا بُنَيَّ، إني أوصيكم بوصيةً مَنْ حَفِظَهَا لَمْ يَضَعْ مَعَهَا؛ إِنْ
أَتَاكُمْ آتٍ فَأَسْمَعُكُمْ فِي الْأُذُنِ الْيُمْنَى مَكْرُوهًا، ثُمَّ تَحَوَّلْ إِلَى
الْأُذُنِ الْيُسْرَى فَاعْتَذِرْ وَقَالَ: لَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَاقْبَلُوا عُذْرَهُ) ^(١).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٢٥.

يرسّخ الإمام في أبنائه قيمةً أخلاقيةً عملية، ليكونوا الكاظمين للغيظ كما كان، والعافين عن الناس كما عُرِف عنه، حتى بات لقباً له. فلا يكفي أن نُطعم أبنائنا كلما طلبوا الطعام.. ولا يكفي أن نكسوهم، وأن نوّمن لهم المسكن الملائم، والترفيه في السفر واللعب والتسوّق وما إلى ذلك. فهم أيضاً بحاجة إلى التغذية الروحية، والتوجيه الأخلاقي، كما هم بحاجة إلى التغذية العقلية، ليزدادوا قرباً من الله، وليزدادوا معرفةً بدينهم، والهدف من وجودهم في الحياة، وليكون سلوكهم سلوكاً إنسانياً راقياً، وليطوّروا من قدراتهم بدلاً من تحطيمها في الألعاب والأجواء التي تعزلهم وتزرع فيهم العقد، ليعرفوا أن الوقت يعني حياتهم.

وكما قال الإمام الكاظم: (اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الأخوان الثّقة الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذّاتكم في غير محرّم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات)^(١).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٢١.

أوصوهم أن يقيموا أنفسهم وسلوكهم.. أوصوهم أن يحاسبوا أنفسهم كما قال الكاظم: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإنَّ عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه)^(١).

يحاسب نفسه وينظر إلى عيوبه وسلبياته، لا إلى سلبيات وعيوب الآخرين لينتقدها ولينتقص من قيمتهم.

انتقل رجل مع زوجته إلى منزل جديد وفي صبيحة اليوم الأول، وبينما هما يتناولان وجبة الإفطار قالت الزوجة مشيرة من خلف زجاج النافذة المطلة على الحديقة المشتركة بينهما وبين جيرانهما: انظريا عزيزي، إن غسيل جاريتنا ليس نظيفاً.. لابد أنها تشتري مسحوقاً رخيصاً. ودأبت الزوجة على إلقاء نفس التعليق في كل مرة ترى جاريتها تنشر الغسيل.. وبعد شهر اندهشت الزوجة عندما رأت الغسيل نظيفاً، وقالت لزوجها: انظر.. لقد تعلّمت أخيراً كيف تغسل! فأجاب الزوج: عزيزتي.. لقد نهضتُ باكراً هذا الصباح ونظفتُ زجاج النافذة التي تنظرين منها!!

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٦١٩.

نعود إلى وصية الإمام، هل نملك مثل هذه الروحية للعفو والتسامح؟

تكمُن في الإنسان مجموعة من القوى التي أودعها الله سبحانه فيه، فهناك القوة العقلية، ويعبر عنها في بعض كتب الأخلاق عند المسلمين بـ (القوة الناطقة)، ولعلمهم أخذوا هذا عن اليونان. هذه القوة من شأنها أن تدرك الحَسَن من القبيح، وتُميز الخير من الشر.. ثم تأمر بفعل الحسن منها وترك القبيح.

وهناك القوة الشهوانية (أو الشهوية): وهي القوة التي يطلب بها الإنسان المنفعة لنفسه، من قبيل المأكل والمشرب والجنس وغير ذلك.

وهناك أيضاً القوة الغضبية: وهي التي يدفع بها الإنسان الأخطار والأذى عن نفسه وعن الأشخاص والأشياء التي تعنيه ويهتم لأمرها.

ومن الواضح أن القوة الشهوية لو أُطلق لها العنان، فإنها ستدفع بصاحبها لتلبية رغباته من دون مراعاة لمعايير معينة كالحلال والحرام، وحُسن الفعل وقبحه.

وهكذا فإن القوة الغضبية يمكن توظيفها في الاتجاه الإيجابي دفاعاً عن النفس والمال والعرض والدين والوطن، كما يمكن أن تكون منفلة يعتدي من خلالها الإنسان على أقرب الناس إليه في لحظة استجابة لها.

وإذا وُفق الإنسان ليكون قادراً على السيطرة على قوته الغضبية فقد وُفق لخير عظيم، وقد قال «تعالى»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ^(١). أي أنه يمتلك حظاً وافراً من الإيمان والوعي والإنسانية النابضة بكل معاني الخير والإحسان.

ونجد في تعاليم الإسلام الشرعية والأخلاقية عدة تدابير تُعين الفرد على ضبط قوته الغضبية، ففي فترة الإحرام مثلاً نجد أن من بين المحرمات: حمل السلاح وإخراج الدم والسب والجدال وقتل هوام الجسد، وكلها تدرب الإنسان على ضبط قوته الغضبية.

وهكذا نجد أن من الغايات الفرعية للصوم ضبط النفس،

حيث قال النبي «صلى الله عليه وآله»: (يا أيُّها الناس من حَسَّنَ منكم في هذا الشهر خُلِّقَ له جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام. ومن خَفَّفَ في هذا الشهر عما ملكَت يمينُهُ، خَفَّفَ اللهُ عليه حسابَهُ. ومن كَفَّ فيه شرَّهُ كَفَّ اللهُ عنه غضبَهُ يوم يلقاه) ^(١).

ومن هنا اعتبر النبي أن لا قيمة لصيام الإنسان الذي لم يفلح في ضبط قوته الغضبية. ففي كتاب الحسين بن سعيد عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (سمع رسول الله «صلى الله عليه وآله» امرأةً تسابُّ جاريةً لها وهي صائمةٌ، فدعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» بطعام فقال لها: كلي. فقالت: أنا صائمةٌ يا رسول الله، فقال: كيف تكونين صائمةً وقد سببت جاريته؟ إنَّ الصوم ليس من الطعام والشراب، وإنما جعل الله ذلك حجاباً عن سواهما من الفواحش. من الفعل والقول يفطرُ الصائم. ما أقلَّ الصوَّام وأكثرَ الجَوَّاع) ^(٢).

(١) الصدوق: الأمالي، ص ١٥٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٩٣.



ويأتي هنا دور الفطرة الأخلاقية والعقل والتقوى والقانون والتربية في ردع الإنسان عن توجيه قوته الغضبية في المحل الممنوع. وهو ما نجده ماثلاً في قصة الأخوين هابيل وقابيل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

أي قد تكون المسألة أكبر من مجرد كلام وموقف كما في مسألة المرأة الصائمة، وقد تعامل الإسلام مع ذلك في بُعْدَيْنِ: شرعي قانوني، وأخلاقي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾^(٢).

(١) سورة المائدة: ٢٧-٢٨.

(٢) سورة النساء: ١٧٨-١٧٩.

• القصاص والعفو:

الإسلام شرّع القصاص في القتل العمد، كما شرّع إمكانية العفو بمقابل مادي، أو بلا مقابل، وقد تحدثت الآيتان عن ذلك، ولكن البعض يطرح التساؤل المتضمن لإشكالية وهي أن المسيحية أرقى في هذا الجانب من الإسلام وأكثر إنسانية.. كيف؟

يقولون: المسيحية لا تعترف بالقصاص كمبدأ، بل إنها شرعت بدلاً منه العفو والتسامح، انطلاقاً من قول السيّد المسيح «عليه السلام»: (من ضربك على خدك فأعرض له الآخر)^(١)، وهي بذلك تكون أرقى في تعاليمها من الإسلام. والجواب في نقاط:

١. التسامح والعفو في المسيحية لم ينطلق ليكون قاعدة وحيدة في التعامل الاجتماعي مع الجريمة والمجرمين، بل انطلق من أجل أن يخفف الجوّ القانوني المادي الذي سار عليه الناس في ذلك العصر الذي رافق إرسال السيّد

(١) الكتاب المقدس: إنجيل لوقا، الأصحاح ٦، الآية ٢٩.



المسيح. المقاييس الروحية حينئذ لم تكن واردة في حساب العلاقات الخاصة والعامة، كما حدثنا القرآن في أكثر من حديث عن واقع بني إسرائيل، ومن هنا جاءت هذه الدعوة الروحية للسيد المسيح لمواجهة هذه الروحية المادية.

٢. ثم لنلاحظ البيان الذي قدّمه المسيح إلى بني إسرائيل في بداية رسالته: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾^(١)، وهو ما يتوافق مع ما جاء في إنجيل (متى): (لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لَأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لَأَنْقُضَ بَلْ لَأُكَمِّلَ)^(٢).

فالآية القرآنية تؤكد على أنّ النصرانية لم تأتِ لتسخ الخطّ العام الذي ارتكزت عليه شريعة التوراة، بل تحرّكت في اتجاه إقرارها بشكل عام مع بعض الاستثناءات في جانب التحليل والتحريم مما اقتضاه التطوّر الزمني لمواجهة

(١) سورة الصف: ٦.

(٢) الكتاب المقدس: إنجيل متى، الأصحاح ٥، الآية ١٧.

المشاكل المستجدة مما لم يعد التشريع فيه عملياً. وبالتالي لا تختلف المسيحية في هذا عن الإسلام الذي شرع الحقوق في جميع المجالات الإنسانية للعلاقات العامة والخاصة، ولكنه قرن ذلك بالدعوة إلى التسامح والعفو والصبر، معتبراً ذلك خيراً وأقرب للتقوى.

بل إن الإسلام تجاوز مسألة الضرب على الخد إلى مسألة القتل، فالقصاص وإن كان مشرعاً، إلا أن الله يحب أن يأخذ الناس بالعفو بمقابل مالي أو من دون مقابل مالي متى ما كانت الحكمة والمصلحة تدعو إلى ذلك، والقصاص ليس الخيار الوحيد في الأمر، والحكم الشرعي القانوني ليس الموقف الحصري في التعامل في مثل هذه الحالة، بل تؤكد الآية أنه من يعفُ ويتجاوز، لا يحق له أن يعود في عفوه وإلا عوقب على ذلك.

وقد مرّت بنا آية ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي تتضمن الدعوة إلى مواجهة الإساءة بالإحسان وليس مجرد إدارة الخد، ولكن المشكلة أننا فشلنا في تسويق هذه المفاهيم القرآنية الراقية، وقدّمنا الإسلام



وشريعته وكأنهما في حالة شوق وتطلّع للدماء والقصاص وقطع الأيدي وإقامة الحدود.

وكما أن من الخطأ تصوير الإسلام بأنه بعيد عن الحالة الروحية الأخلاقية في التعامل مع الإساءة، كذلك من الخطأ القول بأن اليهودية قريبة إلى المادية في التشريع في مقابل اعتبار النصرانية قريبة إلى الروحية في المفهوم، لنخلص من ذلك إلى الحديث عن عظمة الإسلام، لأنه حقق التوازن التشريعي والمفهومي والعملي بين المادة والروح. فالقرآن عند الحديث الرسالات السابقة يؤكد أنها تسير في خط واحد من ملاحظة مصلحة الإنسان، ومصلحته لاشك ترتبط بالجانبين القانوني والروحي.

• تجليّ العفو في يوم عاشوراء:

وفي يوم عاشوراء تجلى الجانب الروحي لدى الحسين «عليه السلام» كأروع ما يكون في موقفه من الحر بن يزيد الرياحي حين أدرك حجم الخطيئة التي ارتكبها بمنعه الحسين من الوصول إلى الكوفة، تاب، فغفا عنه الحسين «عليه السلام» في تجلٍّ للعفو في أعلى مراتبه.

في الإرشاد للشيخ المفيد أنه: (لما رأى الحر بن يزيد أن القوم قد صمموا على قتال الحسين «عليه السلام» قال لعمر بن سعد: أي عمر، أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: إي والله قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي، قال: أفما لكم فيما عرضه عليكم رضى؟ قال عمر: أما لو كان الأمر إلي لفعلت، ولكن أميرك قد أبى. فأقبل الحر حتى وقف من الناس موقفاً، ومعه رجل من قومه يقال له: قرة بن قيس، فقال: يا قرة هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا، قال: فما تريد أن تسقيه؟ قال قرة: فظننت والله أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال، ويكره أن أراه حين يصنع ذلك، فقلت له: لم أسقه وأنا منطلق فأسقيه، فاعتزل ذلك المكان الذي كان فيه، فوالله لو أنه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين بن علي «عليه السلام»؟ فأخذ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد، أتريد أن تحمل؟ فلم يجبه وأخذه مثل الأفكل - وهي الرعدة - فقال له المهاجر: إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة ما



عدوتك، فما هذا الذي أرى منك؟! فقال له الحر: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وحرقت. ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلت فداك - يا ابن رسول الله - أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسأيرتك في الطريق، وجعجت بك في هذا المكان، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، والله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت منك الذي ركبت، وإني تأتب إلى الله «تعالى» مما صنعت، فترى لي من ذلك توبة؟ فقال له الحسين «عليه السلام»: نعم، يتوب الله عليك فانزل. قال: فأنا لك فارساً خير مني راجلاً، أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري. فقال له الحسين «عليه السلام»: فاصنع - يرحمك الله - ما بدا لك^(١). وتقدم الحر وأبلى بلاءً حسناً بعد أن وعظ الناس وحذّره ورغبهم في نصرة الحسين، فحمل عليه رجال يرمون بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين «عليه السلام». وأبلى بلاءً حسناً ثم استشهد «رضوان الله عليه».

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٩٩.



الصدقة الجارية



في الكافي في الحديث المعتبر عن معاوية بن عمار قال:
(قلت لأبي عبد الله - الإمام جعفر الصادق - «عليه السلام»:
ما يلحق الرجل بعد موته؟ فقال: سُنَّةٌ سَنَّهَا يُعْمَلُ بِهَا بَعْدَ
مَوْتِهِ، فَيَكُونُ لَهُ مِثْلُ أَجْر مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ
أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ تَجْرِي مِنْ بَعْدِهِ، وَالْوَلَدُ

الصالح يدعو لوالديه بعد موتهما ويحج ويتصدق عنهما ويعتق ويصوم ويصلي عنهما. فقلت: أشركهما في حجي؟ قال: (نعم) ^(١). والمراد هنا الحج المستحب.

من عناوين الإنفاق والعطاء في سبيل الله الصدقة الجارية، وأوضح مصاديقها الأوقاف، وهي صدقات تبقى عينها عادة لمُدَدٍ طويلة، وتكون غالباً أكثر نفعاً من الصدقات المعتادة، ولها صور كثيرة، وإن كان الناس يحصرونها غالباً في قوالب محددة من قبيل المسجد والحسينية.

• أهمية الوقف:

قيل إن نظام الوقف ابتكار إسلامي، ولم يكن معروفاً من قبل، ولكن التتبع التاريخي يظهر أن ما يشبه نظام الوقف الإسلامي كان معروفاً عند البابليين والفراعنة وسواهم، حيث كانت توقف الأراضي للمعابد والكهنة بحيث ينتفعون من ريعها، بل ولها أنواع كوقف الذرية وما شابه. وهكذا بالنسبة إلى نظام الولاية عليها، وعند المسيحيين أيضاً ما يشبه ذلك.

(١) الكليني: الكافي، ج ٧، ص ٥٧.



ولكن من المعلوم أن الإسلام أولى عناية خاصة بالأوقاف، وبقيت آثارها واضحة إلى اليوم. وكان أهل بيت النبوة وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين علي «عليه السلام» أحد المهتمين البارزين عبر التاريخ الإسلامي في الأوقاف على الفقراء عموماً، وعلى الذرية على وجه التحديد، وذلك لعلمه بما ستواجهه هذه الذرية من محاربة من قبل السلطات الحاكمة على عدة أصعدة، ومن بينها الصعيد المالي.

قال عمر بن شبة النميري البصري في (تاريخ المدينة):
(لما أشرف علي «رضي الله عنه» على يَنْبُع فنظر إلى جبالها قال: لقد وُضِعَتْ على نقيٍّ من الماء عظيم). وأشار ابن شبة إلى العيون التي استنبطها والبساتين التي أنشأها حولها فقال: (وكانت أموال علي «رضي الله عنه» عيوناً متفرقة بينبع) ثم عدّد أسماءها، وهي القرية المعروفة اليوم باسم ينبع النخل لا الميناء، وتبعد ١٦٠ كم عن المدينة المنورة غرباً، وضُمَّت سابقاً ٣٦٠ عين ماء جارية تمتد إلى أكثر من ١٠ كم، ينشط منها حالياً ١١ عيناً. وقد سميت بعض أعين الماء بأسماء بعض الأئمة «عليهم السلام» مثل عين علي،

وعين حسن، وعين حسين، ويوجد فيها قبر الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو ممن حضر كربلاء وأصيب فيها بشدة، وبقي بعدها حياً، وكان زوج السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين.

ثم قال ابن شبة: (وكان له أيضاً صدقات بالمدينة) وبعد أن ذكرها قال: (ولعلي «رضي الله عنه» في صدقاته «عين ناقة» بوادي القرى) أي شمال المدينة المنورة على بُعد ٣٨٠ كم تقريباً. ثم ذكر أوقافاً في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية ثم قال: (وهذه نسخة كتاب صدقة علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» حرفاً بحرف...) ^(١). أي أن الإمام كان يثبت ذلك بدقة كي لا تختلط الأموال ولا تضيع.

ومن نماذج ذلك ما رواه الإمام جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام» أنه قال: (تصدق أمير المؤمنين عليّ «عليه السلام» بدار له في المدينة في بني زريق) وهم من الخزرج، وكانوا يشكلون كثرة فائقة ويسكنون في ناحية مسجد الغمامة الواقع إلى الغرب من المسجد النبوي، إلى باب العوالي

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة، ج ١، ص ٢٢٥.

القريب من سور البقيع في الجهة الجنوبية المقابلة للمسجد النبوي الشريف (وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدَّق عليَّ بن أبي طالب وهو حيّ سويّ، تصدَّق بداره التي في بني زريق صدقة لا تُباع ولا تُوهب ولا تُورث حتّى يرثها الله الذي يرث السماوات والأرض، وأسكن هذه الدار الصدقة خالاته ما عشن، وأعقابهنّ ما عاش أعقابهنّ، فإذا انقرضوا فهي لذي الحاجة من المسلمين. شهد الله) (١).

ومن أبرز المهتمين بالأوقاف الإمام الكاظم «عليه السلام» أيضاً. ولكثرة ما أوقف شب نزاع بين بعض إخوة الإمام الرضا معه «عليه السلام» حيث جعله أبوه وصياً عليها، فحسدوه وبغوا عليه.

• العناية بكتابة الصدقات الجارية:

واليوم عندنا مشكلة فيمن يوقفون، ومن يكتبون وصاياهم، ومن يتبرعون، ومن يوصون شفاهاً، من حيث عدم وضوح المقصود، أو التعارض بين العبارات في نفس النص الواحد، أو تعدد النصوص بلا تأريخ، أو عدم الاهتمام

(١) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٢٤٨.

بشخص الوصي أو المتولي، أو عدم تعيينه، أو من يكون من بعده. وعند وفاة الموصي المتبرع يقع الوصي أو الورثة أو المتولون في حيرة من أمرهم في تنفيذ ذلك العمل الخيري أو الاستمرار فيه، ولربما تقع في يد من لا صلاحية أو لا دين له، فتضيع وجوه الخير. وهذا يستدعي من الإخوة والأخوات مراجعة أهل الاختصاص، والتأكد من وضوح الأمر لدى الوصي قبل الإقدام على الأمر أو تنفيذه، ودقة وحسن اختيار المتولين والأوصياء.

ولذا نشهد نزاعات بين الورثة، أو بين بعض الورثة والمتولين، أو ضياع الأوقاف والصدقات الجارية، والوصايا، والسبب هو عدم وضوح هذه الوصايا أو النصوص، أو الاكتفاء بكونها شفوية، أو تغيير بعض جزئياتها شفويًا دون تدوين. وقد تقوم الصراعات أحيانًا بسبب الطمع بين الأطراف المتنازعة على الوقف، لاسيما إذا كان المردود المالي للعين الموقفة كبيراً، أو كان في الولاية عليها وجهة أو سبباً للنفوذ إلى بعض المؤسسات الدينية أو غير ذلك.

قال المرجع الراحل الشيخ محمد حسين آل كاشف



الغطاء: (فالأوقاف الخيرية العامة العوبة في أيدي المتنفذين، يستغلونها لمآربهم الخاصة، والأوقاف الخاصة للذرية صارت من أقوى أسباب الفتن والبغضاء، ومن أشد دواعي تقاطع الأرحام، بل كثيراً ما ينجر الأمر إلى خراب الوقف واضمحلاله فضلاً عما يترتب عليه من تلف الأموال بل النفوس وإثارة الدعاوى والخصومات)^(١).

ونلاحظ التفاصيل والدقة في تثبيت الدين كما أوصانا بذلك القرآن الكريم، علماً بأن الدين أشمل من القرض:

١. فإذا قسّمت مهر الزوجة إلى مقدم ومؤخر، فالمؤخر دين، في حال أنه ليس بقرض.

٢. وإذا أصبت أحداً فجرحته مثلاً، أو ألحقت الضرر بممتلكاته، كسيارته مثلاً، فأنا مدين له، وإن لم يكن في البين عملية اقتراض.

٣. وإذا اشتريت من أحد بضاعة ولم أسدد له الثمن، فأنا مدين له، وإن لم أقترض منه شيئاً.

والأمثلة عديدة، وعلى كل حال ينبهنا القرآن الكريم إلى

(١) كاشف الغطاء: تحرير المجلة، ج ٥، ص ٩٦.

ضرورة التدوين فيما له علاقة بحقوق الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَنْخَسِ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَاءَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

وهكذا نجد في أمر الوصية توصيات أخرى فيما لو لم تتوفر إمكانية الكتابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي عدلين من غير المؤمنين كالكتابين ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ، فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

• العناية بالاحتياجات الضرورية:

والخلل الآخر هو عدم مراعاة الاحتياجات الحقيقية عند الوقف، فقد تقام المشاريع الوقفية الخاصة في منطقة ما، مع وجود مثيلاتها فيها وسدّها للحاجة، كإنشاء مسجد أو

حسينية في منطقة كأمر تستدعيه وجاهة الواقف، بغض النظر عن عدم حاجة هذا الموقع، ووجود الحاجة إليها في مناطق أخرى قد لا تحقق له من خلالها هذه الوجاهة، وبغض النظر عن الحاجة الفعلية إلى البدائل من قبيل المراكز العلمية والصحية والخدماتية وما شابه. كما قد لا يلحظ التطور في العناوين المشمولة في الأوقاف، فالوقف للدعوة إلى الإسلام - على سبيل المثال - كان يتم من خلال مشاريع محددة، كالوقف على المبلغين أو إنشاء مسجد أو حسينية وما شابه، أما اليوم فالوسائل الحديثة لنشر المعلومة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس باتت ذات أهمية كبرى قد تتحقق من خلالها الأهداف المرجوة من الوقفية بصورة تتجاوز ما تحققه بعض الوسائل التقليدية.

وإذا كان الوقف بعد الممات من خلال الوصية يعد أمراً مهماً وذات قيمة عند الله، إلا أن الأروع من ذلك هو أن يقوم الإنسان بذلك وهو حي. فقد يسهل أن يتخلى الإنسان عن جزء من ماله بعد مماته، وقد تحته نفسه على ذلك أملاً

في الحصول على مقابل آخرون، لأنه يعلم أنه لن يتمتع بهذه الأموال بعد مماته، ولكن أن يعطي وهو حي، ولا يتمتع بهذه الأموال وهو حي، فهذا مصداق من مصاديق التضحية والإيثار، وهي مدرسة كربلاء.

• أنصار الحسين:

مدرسة كربلاء عظيمة في تعلم دروس التضحية من أجل الآخر.. في ليلة العاشر يأتي النداء من الحسين «عليه السلام» لأصحابه بأن يتركوه والقوم، في الخبر المروي عن الامام زين العابدين «عليه السلام» أنه قال: (جمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد، وذلك عند قرب المساء قال علي بن الحسين: فدنوت منه لأسمع وأنا مريض فسمعت أبي وهو يقول لأصحابه: أثني على الله «تبارك وتعالى» أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين، أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي. فجزاكم

اللَّهُ عني جميعاً خيراً، ألا وإنني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإنني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشاكم فاتخذوه جملاً ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري. فقال له إخوته وأبناءؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً، بدأهم بهذا القول العباس بن علي. ثم انهم تكلموا بهذا ونحوه، فقال الحسين «عليه السلام»: يا بني عقيل! حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا قد أذنت لكم. قالوا: فما يقول الناس؟ يقولون: إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا! لا والله لا نفع! ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك. وقال: فقام إليه مسلم بن عوسجة الاسدي، فقال: أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟! أما والله حتى أكسر



في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك، حتى أموت معك. قال: وقال سعد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيك، والله لو علمت أني أقتل، ثم أحيأ، ثم أحرق حيا، ثم أذرّ، يفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى القي حمامي دونك، فكيف لا افعل ذلك؟ وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً^(١).

(١) العسكري: معالم المدرستين، ج ٣، ص ٩٠.

العلو في الأرض

قال «تعالى»: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١). قد يكون
المعنى المتبادر إلى الذهن من اختصاص الآية بفئة معينة
من الناس تمتلك من القدرة والسلطان ما يجعلها عرضة

(١) سورة القصص: ٨٢.

للقوع في فخ (العلو في الأرض) والاستكبار على الخلق وبالتالي تكون سبباً للفساد. إلا أن الخبر التالي المروي عن أمير المؤمنين علي «عليه السلام» يفتح لنا أفقاً أرحب، ويُخرج المسألة من نطاق الفهم الضيق الى الشمولية في التطبيق، حيث روي أنه قال: (إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل في قوله «تعالى»: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) وشراك النعل هو ما يعبر عنه برباط الحذاء.

بالطبع لا يقصد الإمام أن مجرد الرغبة في اقتناء الشيء هو السبب لدخوله ضمن من تستهدفهم الآية الشريفة، بل بخصوصية رغبته في الاستعلاء على غيره بذلك، بدليل كلمة (أجود) الواردة في الرواية والتي تبين حالة المقارنة والتنافس والتعالي، وإلا فإن نفس الرغبة في اقتناء ما هو حسن أو جميل أمرٌ لا يعيبه الإسلام، وقد روي أن رجلاً قال للنبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (يا رسول الله إني أحب

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٣٦.



أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة، أ فمن الكبر ذلك؟ فقال:
لا، إن الله جميل يحب الجمال^(١).

ومن أهم مداخل (العلو في الأرض) ما جاء في قوله
«تعالى»: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٢).

فهذا (المد للعينين) كان وما زال سبباً للكثير من
المآسي التي يقع فيها الناس.

فكم من شخص كتب شيكات بلا رصيد، ودخل السجن،
ودمر أسرته بسبب مد العين!

وكم من أسرة تفككت بسبب ضغط الزوجة لتملك ما هو
أفضل مما يملكه الآخرون، بسبب مد العين!

وكم من سرقات وخيانات مالية وقعت بسبب مد العين!

وكم من امرأة سلكت طريق الفواحش بسبب مد العين!

وكم من جريمة قتل وسطوا ارتكبت بسبب مد العين!

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج٣، ص ٢٦٥٢.

(٢) سورة طه: ١٣١.

وكم من شاب تحول إلى تاجر مخدرات ومتعاطي لها
بسبب مد العين!

وكم من إنسان نسي المسجد ونسي الصلاة ونسي
الآخرة ونسي الموت ونسي ربه بسبب مد العين!

• حلول ضمنية:

قدمت الآية الشريفة ضمناً مفاتيح الحل لتجنب الوقوع
في مآسي مد العين، ونلخصها في النقاط التالية:

١. الإيمان بأن هذه المظاهر المادية ليست سوى زهرة
جميلة عطرة، في ما تمثله الزهرة من وجود طارئ لا يطول
دوامه، فهي تتوهج وتجذب الأنظار ثم سرعان ما تخبو ثم
تذروها الرياح: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْنَاهُ
مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١).

٢. أن هذه المظاهر هي زينة كما أن الزهرة زينة
ومن الكماليات، وبالتالي فهي لا تمثل الأساس والأصل في

التقييم، تماماً كمن يشتري بيتاً مبنياً على أسس ضعيفة وخدمات صحية وكهربائية ومواد عازلة غير متقنة، ولكنه يقتنيه انبهاراً بديكوراتها الجميلة.. فإنه سرعان ما يكتشف الخطأ الكبير الذي وقع فيه، وذلك حين تبدأ تلك العيوب بالظهور لتكلفه الكثير، وتُفقدّه الإحساس بلذة الاستقرار والحياة الهنيئة فيه.

٣. أن هذه المظاهر قد تنقلب وبالأعلى الإنسان إن لم يحسن التصرف بها، فهو مختبر بها ومحاسب عليها، وفق منطق الفتنة الوارد في الآية.

٤. الإيمان بحكمة الله في ما يقسمه بين عباده من رزق في الدنيا، والرضا بذلك، فالخير في ما اختاره الله «سبحانه» لعبده. عن عليٍّ «عليه السلام»: (نعم طارد الهموم: اليقين)^(١) اليقين بحقيقة الدنيا ومحدودية الحياة فيها، وبالأخرة والحساب والثواب والعقاب فيها، وبالعدالة الإلهية، وبالإحاطة الإلهية، وبالقضاء والقدر، وبطبيعة توزيع الأرزاق وبرحمة الله.

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٦١١.



ولذا قال «عليه السلام» أيضاً: (نِعَمَ الطَّارِدُ لَهُمَّ: الاتِّكَالُ عَلَى الْقَدْرِ)^(١) والرضا بقضاء الله وقدره، فقد نفكر ونخطط ونعمل بالشكل الصحيح ولكن لا يأتي الرزق كما نريد. وفي وصية الإمام علي لابنه الحسن: (فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ)^(٢) فالرزق لا يرتبط فقط بمقدار ما تبذل من جهد، فمن الناس من يبذل جهداً أكبر من سواه، ومع هذا تجده لا يكسب بمقدار من يبذل جهداً أقل من ذلك.. بل تجد دكانين، أحدهما مزدحم بالزبائن والآخر فارغ وكلاهما يقدم ذات الخدمة وذات البضاعة. إذاً لابد أن ندرك أن هناك معادلة أخرى.

ومن هنا أيضاً نفهم مسألة الدعاء للرزق والتوكل والرضا بقِسَمِ الله. فقد يقول قائل أنا أوفر كل لوازم النجاح، فلم الدعاء؟ في غفلة أن تدبير الأمور بيد الله، وأن التوفيق ليس إلا بالله.. قال النبي شعيب «عليه السلام»: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٦١١.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٣١.



أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ^(١).

وفي دعاء الافتتاح: (فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك،
ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور)^(٢)..
وهذه الجملة من روائع التعبير عن هذه الحقيقة الإيمانية
التي نحتاج دائماً إلى تذكرها، ونعم المعين هي على الهموم
والمصاعب ومتغيرات الحياة.

٥. أولوية مد العين إلى رزق الله في الآخرة، فهو خير
وأبقى، وهي الدار التي من أجلها خلق الإنسان، وهي دار
البقاء، والدنيا دار الفناء... فلنعمل لما هو خير وأبقى، على
الأقل كما نعمل لهذه الدنيا الفانية.

• دعاء الزهراء:

روى العلامة السيد محسن الأمين في كتابه «أعيان
الشيعة» الدعاء التالي عن مولاتنا فاطمة الزهراء «عليها
السلام»: (اللهم قنّني بما رزقتني، واسترني وعافني أبداً

(١) سورة هود: ٨٨.

(٢) القمي: مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

ما أبقيتني، واغفر لي وارحمني إذا توفيتني، اللهم لا تُعَنِّي في طلب ما لم تُقَدِّر لي، وما قَدَّرَته عَلَيَّ فاجعله ميسراً سهلاً..... اللهم فرِّغني لما خلقتني له، ولا تُشغِلني بما تكفَّلَ لي به.....^(١).

دمار بعض الأسري يأتي نتيجة عدم القناعة.. رب الأسرة يريد الثراء السريع، ويدخل نفسه في دوامة من الديون، لينتهي به المطاف في السجن، أو منتحراً، أو هارباً من القانون.. ويترك وراءه أسرة بكاملها تعاني مرارة العيش بسببه.

وقد تكون الزوجة بمطالبها اللا محدودة، وما تعيشه من حسد وغيره من أخواتها وصديقاتها وجاراتها سبباً لتعاسة الأسرة وتفككها، وما يستتبع ذلك من دخول الأبناء في عالم الإجرام أو المخدرات أو غير ذلك.

وقد يقع الشاب بتهوُّره - نتيجة إلحاح الشهوات - فريسة لأمل الثراء السريع، أو تلبية رغباته الملحة.. سيارات فارهة.. علاقات نسائية غير محدودة.. بذخ.. ويسعى لتحقيقها على

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٠٦.



طريقة الوجبات السريعة.. فيكون مصيره الدخول في عالم
الممنوعات.. أو الصفقات المشبوهة.. وأمثال ذلك، مما
يؤدي به إلى نهايات مأساوية.

مفتاح الحل بسيط جداً.. كلمات قالتها الزهراء «عليها
السلام» في دعائها: (اللهم قنّني بما رزقتني).

ومن جملة الالتفاتات الرائعة في هذا الدعاء المقطع
التالي: (اللهم لا تُعنّني في طلب ما لم تُقدّر لي).. قد
يتصوّر الإنسان أن ما أمامه بمثابة فرصة العمر.. فيبذل
الجهد والوقت والمال والصحة... ولكن في نهاية المطاف
يتبيّن له أنه كان سراباً فحسب.

ولذا تدعو الزهراء «عليها السلام» أن يا رب افتح لي
بصيرتي منذ البداية كي أُميّز ما بين الأمور.. فوقّفتني
لتلك التي تعود عليّ بالخير، وتتحقق من خلالها النتائج
الإيجابية.. ولا تجعلني أعاني الأمرين في سبيل تحصيل
ما لم تُقدّر لي من خلاله ما يعود عليّ بالنفع، إما لأنه لن
يتحقق، أو لأن فيه مضرّتي.

ومن يمدّ عينيه إلى ما متع الله به غيره ويعيش الاستغراق

في ذلك، لا يمكن أن يكون صادقاً حين يقول: (يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً) لأن الذين كانوا مع الحسين هم الذين باعوا دنياهم لآخريتهم، ولم يجعلوا الدنيا أكبر همهم.

• موقف ابن سعد:

في تاريخ الطبري: (ثم نزل وذلك يوم الخميس وهو اليوم الثاني من المحرم سنة ٦١، فلما كان من الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف. قال: وكان سبب خروج ابن سعد إلى الحسين عليه السلام أن عبيد الله بن زياد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة يسير بهم إلى دستبى) منطقة بين قم وهمدان (وكانت الديلم أي سكان جبال محافظة جيلان الحالية وعاصمتها مدينة رشت (قد خرجوا إليها وغلبوا عليها. فكتب إليه ابن زياد عهداً على الري، وأمره بالخروج، فخرج معسكراً بالناس بحمام أعين) موقع بالكوفة منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص (فلما كان من أمر الحسين ما كان وأقبل إلى الكوفة، دعا ابن زياد عمر بن سعد فقال: سر إلى الحسين،



فإذا فرغنا مما بيننا وبينه، سرت إلى عمك. فقال له عمر بن سعد: إن رأيت رحمك الله أن تغفيني فافعل. فقال له عبيد الله: نعم، على أن تردّ لنا عهدنا. قال: فلما قال له ذلك قال عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتى أنظر. قال: فانصرف عمر يستشير نصحاءه، فلم يكن يستشير أحداً إلا نهاه. قال: وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة وهو ابن أخته) وهي حفصة بنت سعد بن أبي وقاص (فقال: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين. فقال له عمر بن سعد: فإنني أفعل إن شاء الله) (١).

ولكنه في نهاية المطاف مدّ عينيه إلى الدنيا، واختارها، قال عنه ابن كثير البداية والنهاية: (وكان عمر بن سعد هذا يحب الإمارة، فلم يزل ذلك دأبه حتى كان هو أمير السرية التي قتلت الحسين بن علي «رضي الله عنه») (٢).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٧١.



وبلغ به الأمر إلى أخس الأفعال وأشد الجرائم. روى الطبري: (قال جاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد: أما بعد، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقى الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان. قال: فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث)^(١).

قال ابن الأثير في أسد الغابة: (ولما قُتل الحسين، أمر عمر بن سعد نفراً فركبوا خيولهم وأوطؤوها الحسين)^(٢). هكذا مد ابن سعد عينيه إلى الدنيا، فكان من أخسر الخاسرين.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١١.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢ ص ٢١.



التَّالِي



عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (ويل للمتأليين من أمتي، الذين يقولون فلان في الجنة وفلان في النار)^(١).

الإيلاء هو الحلف. وتألَّى وائتلى أي حلف. والقرآن

(١) المتقي الهندي: كنز العمال، ج ٣، ص ٥٥٩.

الكريم استعمل هذا العنوان في موردين:

١. التَّالِي على الله أن لا يفعل المعروف: قال الله «تعالى»: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

قد تفعل الخير بحق فقير أو إنسان ضعيف الحال، ثم يأتيك منه سوء تصرف، أو لم يؤد ما توقعته منه تجاهك مثلاً، فتحلف بالله أن لا تساعده بعد ذلك، أو أن تمتنع عن المعروف عموماً، فالآية تنهى عن مثل هذا الموقف والحلف بالله على عدم صنع المعروف ومساعدة المحتاجين.

وقال الله «تعالى» في مورد آخر: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (٢). أي لا تحلفوا بالله عن فعل الخير، فإذا قيل لكم: اتقوا وبروا، وأصلحوا بين الناس قلتم: حلفنا بالله لا نفعل ذلك، فتجعلوا الحلف بالله سبباً للامتناع من فعل الخير.

(١) سورة النور: ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٤.



٢. الإيلاء من النساء: قال الله «تعالى»: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

قال السيد الخوئي في منهاج الصالحين: (الإيلاء هو الحلف على ترك وطء الزوجة)^(٢). ولا ينعقد إلا بشروط، من بينها، بالإضافة إلى القصد والاختيار:

١. الحلف باسم الله «تعالى».

٢. أن يكون للإضرار بالزوجة. فلو كان لمصلحة، وإن كانت راجعة إلى الطفل مثلاً، لم ينعقد إيلاء، بل انعقد يميناً، وجرى عليه حكم الأيمان.

٣. أن يكون في العقد الدائم بعد الدخول، أما لو كان عقداً منقطعاً، أو مجرد عقد فلا ينعقد إيلاء.

٤. أن يكون الإيلاء مطلقاً، أو أزيد من أربعة أشهر.

إذا تمّ الإيلاء بشرائطه، فأما منا احتمالات:

(١) سورة البقرة: ٢٢٦.

(٢) الخوئي: منهاج الصالحين، ج ٢، ص ٣١١.

١. أن تصبر المرأة مع امتناعه عن المواقعة. فلا شيء حينئذ.

٢. أن لا تصبر، فلها حينئذ أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي فيُنظره الحاكم أربعة أشهر، فإن:

(أ) رجع وواقعها في هذه المدّة فهو، وعليه الكفارة، وهي عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فإن عجز صام ثلاثة أيام متواليات.

(ب) وإن لم يجامعها ألزمه القاضي بأحد الأمرين، إمّا الرجوع أو الطلاق، فإن اختار الرجوع، فعليه الكفارة، وإن اختار الطلاق، فلا شيء عليه.

(ج) وإن لم يجامعها ولم يطلقها، حبسه وضيق عليه في المطعم والمشرب حتّى يختار أحدهما، ولا يجبره على أحدهما معيّنًا، وإن امتنع عن كليهما، طلقها الحاكم.

نعود إلى الحديث النبوي، والذي يختص بالحلف بالله أن فلاناً في الجنة أو في النار، وأمثال ذلك، كأن يقول: (فلان، الله لا يغفر له)، أو (فلان، يغفر الله له).



• الوقوع في المحذور:

تارة نتحدث عن هذا السلوك على مستوى فردي، وتارة على مستوى مذهبي عام. أما الأول فمعروف، ويمكن للإنسان معالجته، لأنه يكون محدوداً بأفراد أو بزمان أو بظروف معينة. أما الثاني فخطير، لأنه يكون ممتداً زماناً عادةً، وبالتالي يُدخل في حدوده مجتمعات بشرية وأجيال من البشر، كما أنه يخلق عداوات وأحقاد متجذرة.

المذاهب الإسلامية وقعت في هذا المحذور عبر التاريخ، وما زالت.. والتكفير فرع من فروعه، بحيث لا يكون الحكم على الأفراد فحسب، وإنما على جماعات و فرق ومذاهب بأسرها.

ومن رسائل هذا الحديث النبوي:

١. الجنة والنار بيد الله، ومن اختصاصه، وهو المطلع على نوايا العباد وظروفهم ومقدار ما تقوم الحجة عليهم. والله لا يعاقب الفرد إلا بمقدار ما تقوم عليه الحجة، أي أن يعرف الحق بصورة واضحة ودون تردد ثم يجحده: ﴿مَنْ

اِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١﴾ .

وقال «تعالى»: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

• ميزان وموازين:

استعمل القرآن الكريم كلمة (الميزان) في موارد عديدة إلا أن المتتبع لهذه الموارد يلاحظ أن الله حين يتحدث عن ضرورة التعامل المُنصف والعاقل في عالم التجارة والاجتماع والسياسة وأمثال ذلك فإنه يستعمل الكلمة بصيغة المفرد، كما في قوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٢.



وكما في قوله «تعالى» على لسان شعيب «عليه السلام»:
﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ (١).

وفي المقابل فإنه عندما يستعمل هذه الكلمة في ما له
علاقة بالحساب الأخروي فإنه يستعملها دائماً بصيغة
الجمع، وذلك كما في الآية التي بدأت بها، وكذلك في الآيات
التالية:

قال «تعالى»: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٢).

وقال «تعالى»: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ،
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَالِدُونَ﴾ (٣).

وقال «تعالى»: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ

(١) سورة هود: ٨٥.

(٢) سورة الأعراف: ٨-٩.

(٣) سورة المؤمنون: ١٠٢-١٠٣.

رَّاضِيَةً، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١﴾ ... فما هو السر في ذلك؟

من المحتمل أن المسألة لها علاقة بأنواع أعمال الإنسان، فميزان للعبادة، وميزان للأخلاق، وميزان للعطاء المالي، وميزان للعطاء البدني، وهكذا... هذا احتمال... ولكن هناك احتمال آخر له علاقة مباشرة بالعدل الإلهي.. ولتوضيح ذلك لابد من مقدمات:

المقدمة الأولى: أَنَّ التعبير بالموازين -في القرآن- بالنسبة إلى الحساب الأخروي لا يرتبط بمجموع الناس، بل بكل فرد على حدة. كل فرد له موازين. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾.

المقدمة الثانية: أننا مطالبون بالعدل وبالقسط، والعدل أن تُعطي للناس حقوقهم ابتداءً، وحينها تكون عادلاً.. أما إذا قلنا (أنت مُقسط) فهذا يعني أنك رفعت الظلم بعد وقوعه، ورَدَدْتَ الحَقَّ لأصحابه.

المقدمة الثالثة: الناس يتعاملون في ما بينهم في



المجالات المختلفة على أساس الظاهر، وبحسب العادة لا يأخذون بعين الاعتبار الكثير من العوامل التي تؤثر في مواقفهم وقراراتهم وردود أفعالهم.. فإذا سَعَوْا نحو تحقيق العدالة أو القسط، واعتمدوا على الظاهر والعوامل الظاهرية فسيكون مقبولاَ منهم.. ومن هنا جاء التعبير بالميزان.. أي بصيغة المفرد. أما بالنسبة إلى الله، عالم الغيب والشهادة، فالأمر مختلف تماماً.

فالله «تعالى» حين يحاسب الناس في الآخرة فإنه ينظر إلى كل العوامل الظاهرية والخفية التي أثرت في ما ارتكبه الإنسان في حياته... ومن هنا جاء التعبير بالموازين.. أي بصيغة الجمع.

كل إنسان يولد بمميزات وصفات تختلف حتى عن أخيه التوأم، ولهذه المميزات والصفات الخاصة بكل فرد تأثير على تصرفاته وردود أفعاله.

مثلاً.. يُولد الإنسان ويحمل معه جينات تجعله سريع الغضب والانفعال.. ويُولد الآخر ويحمل معه جينات تجعله هادئ الطبع بارد المزاج.

الله -الذي لا يظلم الناس شيئاً- هل يمكن أن يحاسب هذين الفردين بصورة مماثلة فيما لو صدر عنهما رد فعل متماثل في لحظة غضب أو انفعال؟

هل يمكن أن يحاسب الله «سبحانه» الشاب الذي أخطأ فزنى كما يحاسب الرجل كبير السن المتقدم في العمر إن أخطأ وزنى؟ أليس في قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (إن الله يبغض الشيخ) أي كبير السن (الزاني)، وفي قوله «صلى الله عليه وآله»: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زان) دلالة على الفرق بين مرتكب الزنى إن كان كبيراً في السن وبين الشاب لو فعل ذلك؟ بالطبع هذا لا يعني أن الشاب معفي من العقوبة، ولكن الموازين الإلهية لا تساوي بينهما.. فلنعنفوان الشباب وشدة القوة الغريزية مدخيلة مؤثرة في الأمر، على خلاف الرجل كبير السن. (وملك كذاب) فهو صاحب سلطة وقوة ولا يحتاج إلى الكذب، وعادةً ما يكون فوق المحاسبة، فإن كذب فهذا دليل على خبث سريرته وأن الكذب صدر عنه لا عن



موقف ضعف (وعائل مستكبر)^(١) فماذا لديه كي يستكبر، بل من المفترض أن تُشعره حالة الضعف هذه والحاجة بالآلام الآخرين، فيحنو عليهم ويتواضع لهم، ويخفض لهم جناح الذل من الرحمة.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى مَنْ يقع في المحذور وهو يعيش في مجتمع ممتليء بالإثارة الغريزية، بينما يعيش الآخر في مجتمع محافظ تندر فيه مثل تلك الإثارات.. هل يتساويان؟ ومثل ذلك، الفرق بين مَنْ تتوافر لديه القدرة على الحصول على المعلومة، وَمَنْ يصعب عليه الحصول عليها.. والفرق بين مَنْ أطلع على الثقافات المختلفة، وَمَنْ عاش في مجتمع منغلق ثقافياً وأحادي الفكر.. والفرق بين مَنْ يمتلك سعة من الوقت للبحث والمطالعة، وَمَنْ ضغطت عليه ظروف كسب الرزق فلم تعطه فرصة لذلك.. والفرق بين مَنْ وُلد في أسرة مؤمنة متدينة، وَمَنْ وُلد في بيئة فاسدة فاسقة.. إلخ الصور والفرضيات التي تمتليء بها الحياة.

ثم إنَّ الفرد الواحد تختلف ظروفه وقدراته من مرحلة

(١) مسلم: صحيح مسلم، ح ١٠٧.

إلى أخرى، ومن عمر إلى آخر، ومن مكان إلى آخر؛ ولا يمكن أن يكون ما صدر عنه في ذلك الظرف، أو في تلك المرحلة، أو في ذلك السن، هو بذات القيمة عندما يصدر عنه في ظرف أو مرحلة أو سنٍّ مختلف. هنا نفهم معنى الموازين في الآخرة.. فالعدل الإلهي يستدعي هذه الدقة.

• تجنب الحكم على مصائر الناس:

وإذا كان أمر الحساب في الآخرة يتميز بهذه الدقة على مستوى الأخذ بعين الاعتبار كلِّ العوامل المؤثرة في أفعال الناس وتروكهم كما يدل على ذلك قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ وقوله «تعالى»: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، وقوله «تعالى»: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، فإنَّ هذا يقودنا إلى أنه ليس من حقنا الحكم على الناس في مصائرهم الآخروية.. فالموازين لا يعلمها إلا الله.. ومن العدل الإلهي أن تكون كلُّ العوامل الوراثية والبيئية والتربوية والظاهرة والخفية التي تدخلت في كلِّ فعل أو ردّة فعلٍ صدرت عن الفرد دورٌ في حسابه وتقييم عمله. وغير خاف أن لا أحد يملك الإحاطة بكل تلك التفاصيل سواء «سبحانه وتعالى».



وفي المقابل، فليس من حقّ أحد أن يحتجّ على ما جاء بخصوص العقوبات الأخروية بعد أن آمنّا بأنّ الله هو العدل، وأنه لا يحساب الناس إلا بالموازين القسط، وقد قال «تعالى»: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

٢. هناك فرق بين استحقاق دخول النار وبين فعلية الدخول، فقد يعفو الله عنه ولا يدخله النار، لسبب أو لآخر، والعفو بيد الله وحده، فكيف نجزم أن فلاناً من أهل النار؟ بالطبع هناك مجرمون مميزون في حجم أفعالهم، ويستطيع الإنسان أن يكون قناعة بهذا الخصوص، ولكن يبدو مع هذا أن الله لا يريد لنا أن نتدخل بهذا الشأن.

٣. هذه الذهنية تجعل الإنسان يستغرق في مراقبة الناس وتتبع أمورهم وعثراتهم، وهو خلاف المنهج التربوي الإسلامي الذي أراد من الإنسان أن ينشغل بعيوبه عن عيوب الناس، لأن عيوب الإنسان قد تُرديه، وهي التي تحتاج منه إلى جهد من أجل إصلاحها.

وكما روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» أنه قال:

(طوبى لمن شغلَه عيُّه عن عيوب الناس)^(١) .. (كفى بالمرء غباوة أن ينظر من عيوب الناس ما خفي عليه من عيوبه)^(٢).

٤. هذه الذهنية إذا أصبحت عامة أفقدت المجتمع ثقته ببعضه البعض، لأنه يدفع لتوجس البعض من بعض، والتقبل الظاهري لا الحقيقي.

٥. الاستغراق المذكور قد يؤدي -نتيجة التساهل- إلى أن يصبح المعيار عنده الحب والبغض الشخصيين، والهوى الذاتي.. فمن أحبه أدخله الجنة، ومن أبغضه أدخله النار، وهذا من العصبية المذمومة، وهي قد تدفع إلى اتخاذ مواقف خطيرة على مستوى مصير الإنسان، وتكون منافية للحق.

وفي بحار الأنوار أنهم: (تذكروا العقل عند معاوية فقال الحسين «عليه السلام»: لا يكمل العقل إلا باتباع الحق)^(٣).

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

(٣) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٢٠٦.



فأحياناً تنبهر من قدرة البعض على تقديم الأفكار، واللعب بالكلام، والتأثير على المشاعر، والسيطرة على الجمهور، وامتلاك الشعبية من خلال ذلك، بقول الحسين «عليه السلام» هذا ليس بمقياس لكمال العقل، حيث لا يكتمل العقل إلا إذا وجدنا أن مثل هذا النموذج من الناس قد اتبع الحق. إذا تعصّب لبني جلدته، بغض النظر عن الحق والباطل، فهو لم يكتمل عقله.

وإذا تعصب لبني مذهبه، بغض النظر عن الحق والباطل، فهو لم يكتمل عقله.

وإذا تعصب لبني قبيلته، بغض النظر عن الحق والباطل، فهو لم يكتمل عقله.

وإذا تعصب لبني وطنه، بغض النظر عن الحق والباطل، فهو لم يكتمل عقله.

• المعيار الحسيني:

ولذا فإنه «عليه السلام» عندما أراد الخروج من المدينة في بداية حركته وأوصى أخاه ابن الحنفية قال: (وأنى لم



أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله» أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب «عليه السلام» فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين^(١) لأن الله هو الحق، وهو الذي أوحى بالحق، وأراد للناس أن يسيروا به.

هذا هو المعيار عند الحسين «عليه السلام» في اتباعه، وهذا هو المنطلق الذي من أجله أراد لأنصاره أن يثبتوا معه في يوم العاشر من المحرم.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٣٠.



ثبات الأخلاق ونسييتها



قال الله «عز وجل»: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

للأخلاق والآداب السلوكية في شخصية وحركة الإنسان المسلم في الحياة الأهمية الكبيرة والحيوية، سواء أكان في مواطن الأمن والدعة والرخاء، أم كان في أوقات التحدي والمواجهة والصراع.

والأخلاق من موضوعات الرسالة السماوية كما دلت على ذلك الآية التي بدأت بها. فعملية التزكية تشمل بعث القيم الأخلاقية في النفوس، وترسيخها، ومكاملتها، وتوضيح المبهمات منها. وبها يكتمل الإيمان، فعنه «صلى الله عليه وآله»: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)^(١).

وبها يرتفع مقام الإنسان عند ربه، فعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (أحبُّ عبادِ الله إلى الله أحسنهم خلقاً)^(٢).

القيم الأخلاقية فطرية تولد مع الإنسان، ولكنها بمرور الزمان وتأثير العوامل المختلفة كالتربية والبيئة وضغط الرغبات الشخصية وغير ذلك، تخبو، وتضعف، وتختفي، وتتبدل، وتصبح معالمها غير واضحة.

(١) المباركفوري: تحفة الأحوذى، ح ١١٦٢.

(٢) الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج ٤، ص ٤٤١.



الرسالات السماوية تعيد إليها الحياة، وبريقها الضائع،
وتُكاملها، وتُحفّز على التمسك بها، وتُبَيِّن أبعادها الدنيوية
والآخروية، ليتحقق من خلال ذلك تكامل الإنسان كفرد،
وليتحقق للمجتمع في العلاقات البينية المختلفة شيء من
الاستقرار والأمن.

ويقدم الإمام زين العابدين «عليه السلام» في دعاء
(مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال) لائحة بمجموعة كبيرة
من القيم الأخلاقية الإيجابية التي ترتقي بالإنسان في
سلوكياته الاجتماعية، وتعمل على توطيد الأمن في المجتمع
إن التزم بها الآخرون:

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَحَلِّني بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ،
وَأَلْبِسْني زِينَةَ الْمُتَّقِينَ فِي بَسَطِ الْعَدْلِ وَكُظْمِ الْغَيْظِ وَأَطْفَاءِ
النَّائِرَةِ وَصَمِّ أَهْلَ الْفُرْقَةِ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَافْشَاءِ
الْعَارِفَةِ، وَسْتَرِ الْعَائِبَةِ، وَلِينِ الْعَرِيكِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ،
وَحُسْنِ السَّيْرِ، وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَقَةِ، وَالسَّبْقِ
إِلَى الْفَضِيلَةِ، وَإِثَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ التَّعْبِيرِ وَالْإِفْضَالِ عَلَى
غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلَالَ الْخَيْرِ

وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتَكْتَارَ الشَّرُّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي^(١).

• إشكالية نسبية الأخلاق:

ومع وضوح الموقعية المتميزة للأخلاق في تصوراتنا، وجمال الصورة التي ترسمها، إلا أن في البين من صار يتحدث بمنطق آخر يتعارض مع ما قدّمت.

من بين القضايا والأفكار التي يطرحها بعض الملحدين وأشباه الملحدين، مسألة نسبية الأخلاق وعدم ثباتها.. ولكي يتوضّح مفهوم النسبية وعدم الثبات، أقدم الأمثلة التالية.

تقف أمام القاضي في قضية ما كشاهد، فتشهد بالحقيقة، فيدخل المتهم بسبب شهادتك السجن... فَعُلُكُ هذا ذو بُعد أخلاقي مرتبط بالصدق والكذب.. صدقك في هذا الموقف أمرٌ حسن بالنسبة إليك، وقبيح بالنسبة إلى المتهم.

وتقف أمام القاضي في قضية أخرى كشاهد، فتشهد

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٢.



كاذباً، وتنتقد أباك من السجن.. يستحسن أبوك وأقرباؤك هذا الكذب.. أي أن حسنَ الصدق والكذب أمرٌ نسبي.

تتعرض للتهديد من قبل عدو، فتكذب وتستعمل التقية لتُنقذ نفسك وأسرتك.. أليس في التقية والكذب في هذا الموقف دلالة على نسبية القيم الأخلاقية؟

وهكذا، تجد أن الأخذ بالثأر كان أمراً مقبولاً في زمن ما، بل مفخرة من المفاخر، وهو اليوم قبيحٌ في كثير من المجتمعات.. وحسنٌ في بعضها، ولو على نطاق ضيق.

إذاً – يقول أصحاب هذه المقولة – لا وجود لقيم أخلاقية ثابتة، بل الأخلاق متغيرة بحسب الزمان والمكان، وبتغير الظروف أيضاً.

كما أنها نسبية في الحسن والقبح، لأن الأخلاق – بحسبهم – من صنع الإنسان، وهي ترتبط أيضاً بمصالحه الفردية.

ومثل الصدق، بر الوالدين والأمانة والشجاعة والكرم والوفاء والعدل والتعاون.. إلخ.

ويضيفون أنه لربما صَنَعَ مجتمع ما قِيَمَه الخاصة به.. في بعض المجتمعات -كما كان عند الفايكنج- أن من إكرام الضيف تقديم الرجل زوجته له لتشاركه فراشه! فهل يصح حينئذ أن نفرض هذه القِيَم على مجتمع آخر؟ بالطبع لا، كما لا يصح أن نطالب ذلك المجتمع بالتخلي عن القيم الأخلاقية التي صنعها لنفسه.

في بعض المجتمعات من القبيح أن تعانق وتقبل رجلاً على وجنتيه عند تحيته، بينما يُعتبر ذلك من الأمور الحسنة والدالة على حرارة الترحيب به. وبمرور الزمان أو تبدل الظروف، قد يُغيّر نفس هذا المجتمع بعضاً من هذه القيم التي اختارها، لأنها أيضاً ليست ثابتة.

هذه الرؤية التي تبناها البعض خلال العقدين الماضيين برزت من قبل في القرن العشرين، ولكن لها أصول في الفلسفة اليونانية ونوقشت في أطر دينية وفلسفية واجتماعية عديدة.

والحديث عنها ليس ترفاً فكرياً، بل هي مسألة حساسة تؤثر على السلوك الإنساني، لأن قبول هذه الرؤية يعني أن



بإمكاني فعل ما أشاء، وسيكون فعلي موصوفاً بالحُسن ما دام أنه في مصلحتي، وما دمت لن أتضرّر من الناحية القانونية، بسبب ضعف الرقابة أو التطبيق أو لانعدام القانون. وهو حسنٌ ولو بلغ الأمر قتل الأبرياء، ونهب الأموال، والغش التجاري وما إلى ذلك.

بالإضافة إلى تأثيرها على مصير الإنسان في الآخرة بحسب معتقدنا كمسلمين، لأن الإنسان محاسب على أفعاله كما هو محاسب على إيمانه.

• الرؤية الإسلامية للأخلاق:

إسلامياً، نحن نعتقد أن القيم الأخلاقية مطلقة وثابتة، لأنها نابعة من الفطرة الإنسانية، والفطرة طبيعة ثابتة لا تتغير ولا تتأثر بالزمان والمكان والظروف المتغيرة.. فكيف نفسّر إذاً ما سبق؟

١. هناك خلط بين الأخلاق والآداب، ولا بد من أن نفرّق بينهما.

فالتعامل الحسن مع الآخرين قيمة أخلاقية إيجابية،

وَحُسْن الضيافة كذلك قيمة أخلاقية إيجابية، وأما التقبيل والمعانقة والمصافحة والإطعام ومبيت الضيف ثلاث ليال، وأمثال ذلك فمن الآداب.

وكلامنا عن القيم الأخلاقية لا عن الآداب والعادات والتقاليد، فالأولى ثابتة، والثانية قابلة للتغير بتغير الزمان والمكان والظروف.

٢. هناك خلط أيضاً ما بين نسبية الأخلاق وتقديم الأولى عند التزاحم.. فعند اللجوء إلى الكذب تقيّة لدفع ضرر محتمل من عدو، تكون مخيراً بين قبيحين، الأول هو الكذب، والثاني هو التسبب في قتل إنسان مثلاً.. وأحدهما أشد ضرراً من الآخر.. ولذا فقد اخترت الأقل ضرراً.

في هذا الموقف لم يتحوّل الكذب إلى قيمة أخلاقية إيجابية، ولا الصدق إلى قيمة أخلاقية سلبية، بل يبقى الكذب في نفسه قبيحاً، ولكنه أقل ضرراً وقُبْحاً من التسبب في قتل إنسان بريء.

ولذا فإنه بمجرد زوال الظرف الطارئ وعودة الأوضاع إلى طبيعتها، إذا صدر عنك كذب، فلن تُمتدح عليه.



شهادة الزور والظلم المترتب عليه فعل أخلاقي قبيح على كل حال، وحتى لو كان لتبرئة قريب لي بالباطل.. فكون المتهم أبي أو أخي لا يحوّل شهادة الزور والظلم إلى فعل أخلاقي حسن، ولن يكون مبرراً مقبولاً للكذب.

وعندما أكون بين خيارين، البر والعدالة، كان تطبيق العدالة أولى من أي عنوان آخر، ومن هنا قال الله «عز وجل»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١).

٣. تحقيق العدالة بالاعتصام من القاتل فعل ذو بُعد أخلاقي حسن، مارسته بعض المجتمعات في صورة الأخذ بالثأر على المستوى الشخصي، فكان حسناً وممدوحاً.. ونظّمته مجتمعات أخرى ضمن تشريعات قانونية وبوسائل محددة، فصار الأخذ بالثأر على المستوى الشخصي قبيحاً لتعارضه مع التنظيم القانوني، ولاحتمالية الوقوع في فوضى

إجرائية من قبيل الإسراف في القتل: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (١).

ولن يكون الفعل الصادر عن الفرد ممدوحاً عندما يعيش التمرّد على التشريعات القانونية المنظمة لسلوكيات الأفراد تجاه بعضهم البعض، حتى لو تصوّر هذا الفرد أنه يُحسّن صنعاً عندما قيّم الأمور من منظور فردي، بينما المسألة لا ترتبط به فقط، بل وبالأخرين وبالمجتمع.

القيم الأخلاقية كالصدق، والأمانة، والعدالة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والشجاعة، وحسن التعامل مع الناس، كلها قيمٌ مطلقةٌ وثابتة، غير متبدّلة بتبدّل الزمان والمكان والظروف، وهي فطرية من صنع الله تعالى، لتكون وسيلة لهداية الإنسان في هذه الحياة وتقويم سلوكه وتحقيق غاية من غايات وجوده: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢).

(١) سورة الإسراء: ٢٢.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.



كما أنها لا تُقيَّم من خلال المنظور الفردي وبما يرتبط
بي أنا فقط من منافع ومضار.

وما دعوة الملحدين وأشباه الملحدين إلى القول بنسبية
الأخلاق وعدم ثباتها إلا بمثابة المدخل لإقحام البشرية في
حالة من الفوضى السلوكية على كافة المستويات الاجتماعية
والسياسية والثقافية والقانونية والأمنية والاقتصادية، وعودة
إلى التخلف في السلوك الاجتماعي، علاوة على ما سيعترب
على ذلك من مفسد لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى.

• موقف الإمام زين العابدين:

ولذا لا يستطيع الإنسان إلا أن يقف موقف الإكبار
والإجلال عبر التاريخ للإمام زين العابدين في الحدث التالي
الذي رواه الطبري في تاريخه: (وفى هذه السنة وُلِّي الوليد
عمر بن عبد العزيز المدينة.... وقدم على ثلاثين بعيراً،
فتزل دار مروان.... دخل عليه الناس فسلموا فلما صلى
الظهر، دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبيد
الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن، وأبا بكر
بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن

محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن ربيعة، وخارجة بن يزيد، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يُجزونه خيراً، وافترقوا. قال: وحدثني محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر عن أبيه قال: كان هشام بن إسماعيل الوالي السابق للمدينة (يُسئ جوارنا ويؤذينا، ولقى منه علي بن الحسين أذى شديداً، فلما عُزل، أمر به الوليد أن يوقف للناس، فقال: ما أخاف إلا من علي بن الحسين. فمر به علي، وقد وقف عند دار مروان، وكان علي قد تقدّم إلى خاصّته أن لا يعرض له أحدٌ منهم بكلمة، فلما مرّ ناداه هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته^(١).

نفس الإمام زين العابدين «عليه السلام» أوقف أمام ابن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٢١٧.

زياد وأمام يزيد بن معاوية، رغبة التشمّت به من قبلهما، فإذا بالإمام يقلب الأمور عليهم، وكأنّ المشهد كان مصداقاً قوله «تعالى»: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

وقف الإمام ليقول ليزيد برواية ابن أعثم الكوفي في الفتوح: (ويلك يا يزيد! إنك لو تدري ما صنعت وما الذي ارتكبت من أبي وأهل بيتي وأخي وعمومتي، إذاً لهربت في الجبال وفرشت الرماد، ودعوت بالويل والثبور أن يكون رأس الحسين ابن فاطمة وعلي منصوباً على باب المدينة! وهو وديعة رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيكم، فأبشر بالخزي والندامة غداً إذا جمع الناس ليوم لا ريب فيه)^(٢).

وأضاف ابن أعثم: (ثم دعا يزيد بالخاطب وأمر بالمنبر فأحضر، ثم أمر الخاطب فقال: اصعد المنبر فخبّر الناس بمساوئ الحسين وعليٍّ وما فعلا! قال: فصعد الخاطب المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم أكثر الوقعة في علي

(١) سورة التوبة: ٨٢.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ١٣٢.

والحسين، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد، فذكرهما بكل جميل. قال: فصاح علي بن الحسين: ويلك أيها الخاطب! اشتريتَ مرضاةَ المخلوقِ بِسَخَطِ الخالقِ، فانظر مقعدك من النار. ثم قال علي بن الحسين: يا يزيد، أتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه رضا الله ورضا هؤلاء الجلساء، وأجرٌ وثواب؟ قال: فأبى يزيد ذلك، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أئذن له ليصعد المنبر، لعلنا نسمعُ منه شيئاً! فقال: إنه إن صعد المنبر لم ينزل إلا بفضيحتي أو بفضيحة آل سفيان، قيل له: يا أمير المؤمنين، وما قدَّرُ ما يُحسنُ هذا؟ قال: إنه من نسلِ قومٍ قد رُزقوا العلمَ رزقاً حسناً. قال: فلم يزالوا به حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون وأوجل منها القلوب...) ^(١) وذكر الخطبة المعروفة.

(١) ابن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ١٢٢-١٢٣.



مراتب الأخلاق



قال الله «عز وجل» في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ
حَنِيدٍ﴾^(١).

(١) سورة هود: ٦٩.

تحدثت في الموضوع السابق عن قيمة الأخلاق بالنسبة إلى الإنسان المسلم في حركته في الحياة وفي تكوين شخصيته وفي تأثير ذلك على مصيره الأخرى، ومما يجب أن نلتفت إليه أن للأخلاق والآداب مراتب.

• المرتبة الأولى:

الأخلاق والآداب التبادلية، وهي الأكثر رواجاً بين الناس. فبعض الناس يُحسنون إلى الآخرين إذا أحسنوا إليهم، ويتبادلون الزيارات والهدايا والتحايا في المناسبات الاجتماعية والمواقف الإيجابية، وما إلى ذلك.

الشعور بالخجل والمجاملة قد تكون الحافز وراء هذه التبادلية الأخلاقية، بحيث لا يكون للإنسان حافز لزيارة أو رد إيجابي على تواصل، ولكنه يقوم بذلك بدافع الخجل من الطرف الآخر أو حذراً من اللوم الاجتماعي.

هذا المستوى من الأخلاق والآداب لا بأس به، لاحتياج الناس إليه لانتظام حياتهم وتماسك مجتمعاتهم وتقوية علاقاتهم بدلاً من التفكك والانعزال.

• المرتبة الثانية:

الأخلاق المتجردة، وهي تمثل مستوى أعلى من الأخلاق التبادلية. في هذا المستوى يتحول الحافز الخارجي إلى حافز داخلي ذاتي، ينبع من قوة الإيمان بالله «عز وجل» ومحبه، أو التقدير والاستحسان للفعل في حد ذاته.

في مثل هذه الحالة لا تنتظر الأخلاق المبادرات، ولا حجمها ولا نوعيتها لتحدد الموقف بما يقابله، بل تتبع من إرادة تجسيد القيم بمعزل عن مبادرات الناس، وتنتقل من مستوى عال من تهذيب النفس وتربيتها على الإحساس بالآخر وبقيمة المبادرة تجاهه.

أرسل الله «عز وجل» - كما مرّ في الآية التي صدرت بها الموضوع- ملائكته في هيئة بشرية وكأنهم من المسافرين، ومعهم أمران، الأول البشارة بحمل السيدة سارة بإسحاق، ثاني أولاد إبراهيم «عليه السلام».

كان الله «عز وجل» قد رزقه بإسماعيل من قبل، من أمته هاجر، ولعل بعض القرائن تساعد على القول بأن ذلك كان



قبل ١٣ سنة من هذه الحادثة، وبعد أن ابتلاه الله بأمرين:
الأول: التخلي عن ولده الوحيد إسماعيل وأم ولده في واد
غير ذي زرع، وتعريضهما للهلكة استجابة لأمر الله.

الثاني: ذبح ولده الوحيد إسماعيل، فاستجاب لأمر الله،
وكاد أن يذبحه، ثم فذاه الله بكبش عظيم، وكافأه على هذه
الطاعة المطلقة، وتخطيه هذين الابتلاءين العظيمين، بأن
رزقه بولد ثان.

يعني كاد إبراهيم «عليه السلام» أن يفقد ولده الوحيد
الذي رُزق به على كبر سن، استجابة لأمر الله، فإذا به يُرزق
بولد آخر مبارك، تتحدر منه ذرية عظيمة من الأنبياء،
كيعقوب ويوسف وموسى وهارون ويوشع وداود وسليمان
وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم «عليهم السلام».

ثم رزقه الله من إسماعيل بولد هو سيد الأنبياء
والمرسلين محمد «صلى الله عليه وآله» استجابة لدعائه:
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).



إبراهيم «عليه السلام» عندما وفد عليه الضيوف، لم ينتظر أن يصدر عنهم شيء إيجابي كي يكرمهم، بل بادر بالترحيب والضيافة بالمستوى الأميز... ذبح لهم عجل سمين وشواه لهم فكان يقطر سمناً.. هذا من مكارم الأخلاق.

• المرتبة الثالثة:

مكارم الأخلاق، وهو المستوى الأرقى من السابق. المستوى الأعلى من مكارم الأخلاق يتجلى في مثل مبادلة الإساءة بالإحسان، فالآخر لا يقف موقفاً محايداً وإنما يمارس الظلم في حقي، وتجسيد مكارم الأخلاق من جهتي يكون من خلال مقابلة إساءته بالإحسان.

عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بمكارم الأخلاق، فإن الله بعثني بها. وإن من مكارم الأخلاق أن يعفو الرجل عن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وأن يعود من لا يعود)^(١).

هذا الشخص يعلم بحاجتي، ويتمكن من المساعدة،

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٨٠٤.

ولكنه لا يفعل شيئاً، حتى إذا جاء وقت احتاج فيه إلى المساعدة بادرت بها تجاهه. إنه تعال للذات، لا لتحقير الآخر، ولا للمزايدة، بل من منطلق تهذيب النفس.

السلم الاجتماعي بحاجة إلى هذا المستوى من الأريحية الأخلاقية والرقى الإنساني، لأن نفوس البشر مجبولة على الأنانية والظلم والعدوان، ولديها قابلية شديدة لذلك، فإن لم تظهر فئة من الناس لديها مثل هذه المكارم الأخلاقية، فستزداد مساحة الظلم، تبعاً لحالات التشفي والانتقام ورد الإساءة بالمثل.

وقد تتوارث الأجيال ذلك، وتتحول إلى ثارات عائلية أو قبلية أو قومية، وتكون لها إفرازاتها الأعماق التي تؤثر على دين الناس وآخرتهم... والمسألة ليست سهلة إلا على من زكى نفسه.

قال «عز وجل»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١).



• التشجيع على الإساءة:

ولكن يتساءل البعض: ألا تغري مكارم الأخلاق ذوي النفوس الضعيفة للاسترسال في الإساءة؟

نعم، هذا ممكن، ولكل شيء ضريبة، وعلينا تحمّل هذا الاحتمال طلباً لما هو خير، تماماً كما أمرنا الله أن نتجنّب كثيراً من الظن، بينما قد تصدق بعض تلك الظنون، لأن بعضها الآخر فقط يمثل سوء ظن ويأثم عليه الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(١).

وإذا حصل فسيكون الموقف الأخلاقي نفسه إساءة... ولكن في العمق يكون هذا الموقف هو الخيار الأخير الذي لا تهواه النفس نتيجة تربيتها وتزكيتها، بحيث أن الذات باقية على رقيها وسكينتها، ولا يتعقد الإنسان من خصال الخير ومكارم الأخلاق، ويستمر مع الآخرين في تصرفاته على المستوى الأرقى، لأنه لم يتحرك من موقع التشفي والأننا والانتصار للذات، بل لأن الآخر لا يقف عند حده في الإساءة إلا بمثل ذلك.

(١) سورة الحجرات: ١٢.



وكما مرَّ معنا قوله «عز وجل» في بحث التَّألي: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١). لا تتعقدوا من تصرفات البعض بحيث تمنعكم من فعل المعروف بصورة المختلفة.

أبو عزة الجُمحي واسمه عمرو بن عبد الله، من شعراء مكة المشركين، وكان يهجو النَّبِيَّ «صلى الله عليه وآله» ويسيء إليه، أسر في غزوة بدر فيمن أسر من المشركين، فَضَرَعَ إِلَى النَّبِيِّ «صلى الله عليه وآله» أَنْ يَعْتَقَهُ دُونَ فِدَاءٍ، وقال: (يا محمد، إني فقير وذو حاجة قد عرفتها، فامنن عليَّ لفقري وبناتي) ولديه خمس بنات (فرَّق الرسول وأطلقه، بعد أن أخذ عليه الميثاق ألا يُظَاهِر عليه).

ولما أجمعت قريش على غزوة أحد في السنة القابلة، قالت: نسير في العرب فنستنصرهم، فاجتمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسиров في العرب يدعونهم إلى نصرهم، فبعثوا عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب،



وابن الزبيري، وأبا عزة الجمحي، وهم بين شاعر وداهية، فأطاع النفر وأبي أبو عزة أن يسير، وقال: (منّ عليّ محمدٌ يوم بدر ولم يمنّ عليّ غيري، وحلفت لا أظاهر عليه عدواً أبداً. فمشى إليه صفوان بن أمية فقال: اخرج؟ فأبى فقال: عاهدتُ محمداً يوم بدر لا أظاهر عليه عدواً أبداً، وأنا أفي له بما عاهدته عليه. منّ عليّ ولم يمنّ عليّ غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء. فقال له صفوان: اخرج معنا، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت، وإن تُقتل كان عيالك مع عيالي. فأبى أبو عزة حتى كان الغد، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيساً منه، فلما كان الغد جاءه صفوان وجبير بن مطعم، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى، فقال جبير: ما كنت أظنّ أني أعيش حتى يمشي إليك أبو وهب في أمر تأبى عليه! فأحفظه، فقال: فأنا أخرج! قال: فخرج في العرب يجمعها، وخرج معه النفر فألبوا العرب وجمعوها).

وفي أحد أسر الرجل، ويقال أنه الأسير الوحيد من قريش، فتوسّل إلى النبي أن يعفو عنه مرة أخرى، فقال له «صلى الله عليه وآله»: (لا والله، لا تمسح عارضيك بمكة،

وتقول: خدعت محمداً مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين، اضرب عنقه يا زيد^(١).

• إمام مكارم الأخلاق:

وقد كانت للأخلاق الرفيعة وأعلى مراتب مكارم الأخلاق للإمام الحسين «عليه السلام» تجلياتها الرائعة في أجواء كربلاء، بكل ما حملته تلك الأجواء من أخبار سيئة مُحِبطة تمثلت في وصول نبأ استشهاد مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبد الله بن يقطر.

وبكل ما حملته من مواقف الخذلان المتمثلة في تبدل موقف الكوفيين، وفي الانسحاب الكبير من قبل النفعيين الذين سايروا الإمام وهم يتصورون أنهم سائرون لقطف ثمار انتصار سهل في بلد سلم قيادته طوعية للإمام «عليه السلام».

وبكل تعقيدات المعركة التي تمثلت في المواجهة غير المتكافئة عدداً بين طرفي المعركة.. وغير ذلك. كل هذه الظروف لم تسلخ الإمام الحسين «عليه السلام» عن أخلاقه

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٧٥.



الرفيعة، لأنها جزءٌ لا يتجزأ من شخصيته العظيمة: ﴿إِنَّ
الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا﴾ هذه طبيعة الإنسان في الشدائد وعند تكاثف النعم،
ولكن تبقى الفئة المميزة مختلفة سلوكياً ونفسياً: ﴿إِلَّا
الْمُصْلِينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ،
وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ
بَشَاهِدَاتِهِمْ قَائِمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَٰئِكَ
فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ (١).

مجموعة هذه الالتزامات تربي الإنسان على أن يكون
مختلفاً في الشدائد وحين تكاثر النعم، فلا يفقد توازنه
الأخلاقي.

وقد تجلت أخلاق الإمام الحسين «عليه السلام» الرفيعة

في علاقته مع أصحابه، وقد خاطبهم في ليلة العاشر في
الظرف العصيب الذي يبحث فيه القائد عن الأنصار: (إن
هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل واحد منكم
بيد رجل من أهل بيتي فإن القوم لا يريدون غيري)^(١). لئلا
يحملهم مسؤولية استحياء منه أو خوفاً.

وتجلّت أخلاقه كأروع ما يكون في علاقته مع أعدائه
حين التقى بجيش الحر، فأمر أصحابه بأن يسقوهم الماء
ويرشفوا خيولهم.

في الإرشاد للشيخ المفيد: (ثم سار «عليه السلام»
من بطن العقبة حتى نزل شراف، فلما كان في السحر
أمر فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا، ثم سار منها حتى
انتصف النهار، فبينما هو يسير إذ كبر رجل من أصحابه
فقال له الحسين عليه السلام: الله أكبر، لم كبرت؟ قال:
رأيت النخل، فقال له جماعة من أصحابه: والله إن هذا
المكان ما رأينا به نخلة قط، فقال الحسين عليه السلام:
فما ترونه؟ قالوا: نراه والله آذان الخيل. قال: أنا والله أرى

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٥.

ذلك. ثم قال عليه السلام: ما لنا ملجأ نلجأ إليه فنجعله في ظهورنا، ونستقبل القوم بوجه واحد؟ فقلنا: بلى، هذا ذو حسمى إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت إليه فهو كما تريد. فأخذ إليه ذات اليسار وملنا معه، فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هواذي الخيل، فتبينناها وعدلنا، فلما رأونا عدلنا عن الطريق عدلوا إلينا كأنّ أسنتهم اليعاسيب) جمع يعسوب أمير النحل شبهها في كثرتها بأن كلاً منها كأنه أمير النحل اجتمع عليه عسكره (وكان راياتهم أجنحة الطير) للدلالة على الكثرة واتصال بعضها ببعض (فاستبقنا إلى ذي حسمى فسبقناهم إليه، وأمر الحسين «عليه السلام» بأبنيته) الخيام (فضربت. وجاء القوم زهاء ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين عليه السلام في حر الظهيرة، والحسين وأصحابه معتمون متقلدوا أسيافهم، فقال الحسين «عليه السلام» لفتيانہ: اسقوا القوم وأرووهم من الماء، ورشّوا الخيل ترشيفاً. ففعلوا وأقبلوا يملؤون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس، فإذا عب فيها ثلاثاً أو أربعاً أو

خمساً عُزلت عنه وسقوا آخر، حتى سقوها كلها. فقال علي بن الطعان المحاربي: كنت مع الحر يومئذ فجئت في آخر من جاء من أصحابه، فلما رأى الحسين «عليه السلام» ما بي وبفرسي من العطش قال: أنخ الراوية. والراوية عندي السقاء، ثم قال: يا ابن أخي، أنخ الجمل. فأنخته فقال: اشرب. فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء، فقال الحسين «عليه السلام»: اخنث السقاء. أي اعطفه، فلم أدر كيف أفعل، فقام فخنّته فشربت وسقيت فرسي^(١).

لقد كان بإمكان الحسين «عليه السلام» وهو يقطع الطريق في مفاوز قفار سحيقة، أن لا يُفْرِطَ بقطرة ماء، لكنها تمام مكارم الأخلاق التي تجلّت في لمحة إنسانية ملائكية ينذر أن يكون لها نظير في تاريخ البشرية.

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٧٧-٧٨.

